Tuboo Rashada, Economic ,Social Activity and Political Role in Nineteenth and Beginning of twentieth Century .

التبو رشادة نشاطهم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين

أ.م.د. محمد عبد الرازق الدروقي
جامعة طبرق

أ.د. جاسم محمد شطب العبيدي
جامعة كربلاء

ملخص البحث

يدور بحثنا هذا حول قبائل التبو رشادة ، وهم أحد شعوب الصحراء الكبرى ، فتناولنا فيه بصورة موجزة جغرافية إقليمهم ومناخه والنباتات الطبيعية والحيوانات المتوحشة ، وأصول هذا الشعب وتكوينهم الجسماني وعاداتهم وتقاليدهم وأنماط حياتهم وغذاءهم وأمراضهم وطرق العلاج عندهم وديانتهم . وأخذنا بالتحليل أسباب التردي الاقتصادي لديهم في مجالات الزراعة والرعي والصناعة والتجارة. وما فاتنا أن نستعرض نظامهم السياسي البسيط ودورهم في التنافس السياسي العثماني الفرنسي في الصحراء الكبرى . وفي نهاية الأمر وصفنا كيف تخلت عنهم الدولة العثمانية لتتركهم مع السنوسيين وجهاً لوجه أمام الاستعمار الفرنسي فأصبحوا جزءاً من الامبراطورية الفرنسية في شمال أفريقيا .

SAMARRY

We are deal with This research Tuboo Rashada tribe , who are one of Large African desert people ,then we are treating in brevity, geography of them region, its climate, its natural plants , and wild animals, and also we deal them origin ,them bodily reform, them habits, the traditions, them life modes , them nourishment, the diseases , and them religion. And we treat with analytic them badness them economic reasons in agriculture, grazing, the handcraft, and them trade .And we don't forget to review them simple political regime ,and them role in French Ottoman competition in African large desert in nineteen century. In the end we descripted how did the Ottoman state abandoned them with the Sanusian, face to face with French imperialism, which were became part of French imperialism empire in north Africa.

المقدمة

تعد الصحراء الكبرى موئلاً لعدد من الجماعات العرقية المتباينة الأجناس والألوان والعادات والتقاليد ، وبدلا أن تصبح هذه الصحراء مانعاً جغرافيا صعباً على التذليل ، صارت مجالاً للتبادل الثقافي والتجاري والتلاقح الحضاري عبر مئات السنين بين المجموعات البشرية والعرقية التي تعيش في هذه البيئة الجغرافية ، إذ تفاعل التبو رشادة أو (التيدا) ، مع المجموعات الأخرى وأدت أدواراً في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، إلا أنها ظلت مجموعة بشرية منسية تماما ، أو قل مجهولة في القرن التاسع عشر والسنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى من القرن العشرين، وما توفر من معلومات عنهم إنما جاءت عن طريق الرحالة الأجانب الذين اجتازوا إقليمهم، أو كتبوا ما سمعوه عنهم من أفواه الرواة الذين لا يخلوا كلامهم من المبالغة ، وفي تقديرنا المتواضع أن ما كتبه عنهم الرحالة الألماني غوستاف ناختيغال Gustave Nachtigalفي عدد من المجلدات، ومواطنه غيرهارد رولفس Gerhard Rolovsكان أفضل وأدق ما كتب عنهم ، لذا نرى أنهم بحاجة إلى من يكتب عنهم من الباحثين العرب أو الأفارقة . وإذا لم نصب بعضاً من حقيقتهم في بحثنا هذا الذي يدور عن أعراقهم وثقافتهم وتدينهم ونشاطهم السياسي، ومواقفهم في التنافس بين العثمانيين والفرنسيين فحسبنا إننا حاولنا . وأتمنى لمن يتناولهم بعدنا كل الموفقية .

شيء من التكوين الطبيعي لإقليم التبستي ، والاجتماعي والديني للتبو(التيدا)

تتكون كلمة تبو أو توبو من مقطعين ، "تو" ومعناها الصخر و "بو" ويعني الرجل ، وهي بذلك تعني رجل الصخور ومجازاً شعب الصخور، وهم على مجموعتين، التبو الشماليون (التيدا) والتبو الجنوبيون (الدازا)[1] وتوصف قصبات جنوب فزان تجرحي ومدروسة وبخي والقطرون من التبو الخلص من تبستي ، التي طردوا إليها من مرزق تماماً في القرن الثامن عشر من قبل أولاد محمد الأسرة الحاكمة في مرزق في مطلع العصور الحديثة [2] .

يتحكم التبو رشادة[3] (التيدا) بإقليم واسع يمتد بين دائرتي عرض 18˚ و23˚ شمالاً وبين خطي طول 12˚ و20˚ شرقاً ، وتعد القطرون وزيغن وبخي وتجرهي ، التي لم تكن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر سوى كوم من الخرائب ، ومدروسة ووادي برداي وهو منطقة زراعية مهمة لدى تبو رشادة[4] ، وتتوزع فضلاً عن التجمع الرئيسي ستة تجمعات أخر وهي زوي ودودوي وسرديقاي في جنوب شرق الوادي وثلاثة أخرى وهي إرمسيبي وصقرا ومسكا في شمال الوادي . وكان مينا(شيخ) تبو

رشادة يسكن في آبو القريبة من التبستي وعلى طول الوادي توجد مياه عذبة ممتازة على عمق ضحل للغاية ربما لا يتعدى نصف المتر عمقاً[5]، ووادي (أنيري) زوار– وزوار كاي ومن وادي برداي إلى الشمال ، إذ يقع الجزء الشرقي الأقصى من فزان وتفصلها عنها صحراء غير مأهولة تمتد على أربع دوائر عرض وهي مجموعة واحات واو ، وبعد سفر خمسة عشر يوماً باتجاه الشمال الشرقي يصل المسافر إلى مجموعة واحات الكفرة التي كانت من مواطن التيدا أو تبو رشادة لحد القرن التاسع عشر، عندما تعرضت إلى غزوات القبائل العربية ، لاسيما قبيلة الزوية الشديدة المراس وأفرغت من سكانها التبو تماماً[6].

ومنهم أخذت الكفرة تسميتها إذ كانت تسمى بـ "تازربو" وهي اسم الواحة الرئيسة فيها لما كان سكانها من التبو ، أما تسمية "الكفرة" فيبدو أنها تعني أرض الكفار في إشارة إلى ديانة سكانها من التبو ، ويبدو أيضاً ان السكان النازحين من الكفرة (تازربو)إلى التبيستي تحت ضغط القبائل العربية ، تجمعوا تحت اسم "التازيرا". وتقدر مساحة الأقاليم التي يستوطنها التبو حوالي 500,000 كلم^2 ، ويتوسط هذا المدى الواسع سلاسل جبال التبستي ذات الامتدادات الهائلة ، والاتجاهات المتباينة، بيد أنها تمتد باتجاهين رئيسيين وهما شمالي غربي جنوبي شرقي وشمالي شرقي جنوب غربي، وهي على العموم جبال بركانية نارية قديمة التكوين يصل أعلى ارتفاع لها في قمة إمي كوسي 3415متر فوق سطح البحر. وعلى العموم تقطع هذه السلاسل الجبلية بمجموعة من الأودية العميقة الجافة باتجاهات مختلفة ايضاً ، ويشكل خط توزيع المياه في السلاسل الجبلية بدايات لهذه الأودية فمنها من يتجه إلى الشمال والأخرى إلى الجنوب، والشرق والغرب [7].

ووصف الشيخ محمد بن عمر التونسي الذي زار المنطقة من خلال عبوره لها في عام 1812 **"أن أراضي تبو الرشادة منطقة محروقة تغطيها صخور جرداء شديدة الانحدار ، ومما يؤكد ذلك وجود عين بركانية كبريتية في التبستي وصف مائها بأنه يخرج في حالة غليان من داخل الأرض ، وهي ملائمة للاستشفاء وعلاج مرض المفاصل وإذا شرب أحدهم من هذا الماء الساخن الاذع ربما أصبح سبباً في شفائه ، فضلاً عن الاعتقاد الجازم لدى قبائل التبستي بأن غسل العينيين بمائها يبرئهما في الحال . أما غطاؤها النباتي فمتفرق هزيل "** [8] . ومما يميز طبيعة التبستي البركانية الشديدة الوعورة وجود العيون الكبريتية الحارة ، ذات الطبيعة الاستشفائية ، ربما كانت اكثر مما ذكره الشيخ التونسي ، وهي غير مشهورة في فزان أو طرابلس نتيجة للطبيعة الغامضة لتلك السلاسل الجبلية ، أو ربما أضفى عليها التبو كثيراً من السرية بكونها الأغلى في بلادهم القاحلة دون معرفة أسباب ذلك ، ودون معرفة الميزة الطبية لتلك الينابيع . كما توجد المنخفضات في أعلى جبل إمي كوسي ، إذ يوجد منخفض بعمق 270متراً بقطر ثلاثة كيلومترات ، مغطى بالنترون[9] .

وتتباين درجات الحرارة تبايناً شديداً لاسيما بين الليل والنهار، إذ تتجاوز ساعات الذروة أي حول الثالثة بعد الظهر 40درجة مئوية بينما تنخفض في الليل إلى ما دون الصفر المئوي في بعض أشهر السنة في أعالي القمم الجبلية في التبستي، والرطوبة النسبية منخفضة على العموم. وتشكل سلاسل جبال التبستي حدا فاصلاً بين المناخ الصحراوي الشديد الجفاف والمناخ شبه الموسمي، ولذلك لا يندر سقوط الأمطار في شهري تموز (يوليو) وآب (أغسطس) بفعل الرياح الموسمية القادمة من الجنوب الغربي . وإذا هبت الرياح الشمالية أو الشمالية الشرقية ، فهي مدعاة لانخفاض درجات الحرارة في النهار. أن تأثير المناخ الحار والجاف كبير على الحياة البشرية النباتية والحيوانية والزراعة في الإقليم ، إذ تميز بفقره إلا في بطون الأودية . كما تميز بتأثيره الكبير على حياة التبو الصحية، حيث تنعدم سلسلة طويلة من الأمراض نتيجة ذلك المناخ [10].

أن عدم استجابة الأرض الصخرية مع تساقط الأمطار جعل من صخورها أحواضاً طبيعية لحفظ المياه في تلك البيئة الصخرية القاسية وكان بعضها يحفظ المياه طوال العام ، أما بطون هذه الأودية فكانت مجالات مهمة لنمو النباتات المختلفة ، التي ربما تغير من رتابة الصخور الموحشة ، كما تمكن السكان من زراعة المحاصيل الزراعية مثل التمور والقمح والدخن والذرة . كما شكل النبات الطبيعي في بطون الأودية مثل العاقول ونخيل الدوم والطلح (السيال) والعشر وأبو ركبة والحاد وغيرها من النباتات العلفية الأخرى، غذاءً مناسباً للحيوانات المدجنة الأكثر أهمية في الصحراء وهي الأبل ، كما تشكل ملاذا مناسباً للحيوانات البرية مثل الظباء والنعام والودان وقرود البابون والأفاعي والضباع المختلفة الأنواع وغيرها [11].

وعلى الرغم من قرب المنطقة من فزان ووقوعها على الطريق إلى برنو المطروق منذ 6000سنة ، بيد أنها تكاد مجهولة تماماً حتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر ولم يكن ممكناً الوصول إليها بسبب طبيعة أرضها الصخرية الوعرة ، التي منها أنتحل اسم تبو رشادة (تبو الصخور) ، وطبيعة سكانها التي يجمع من عايشهم بانها طبيعة غادرة غير جديرة بالثقة مما أمن استقلاليتهم على المدى البعيد ، إذا كان الطرابلسيون والفزانيون لا يسافرون فرادى إلا في قوافل كبيرة وكانوا يشعرون بالاطمئنان عندما يتركون جبل تو وأهله السيئي السمعة ورائهم [12]، وحتى عندما فتح الطريق المباشر من واداي إلى بنغازي وشواطئ البحر المتوسط من قبل عبد الكريم1803-1813 ملك واداي الحصيف الملقب "صابون" في بداية القرن التاسع عشر فإن الطريق الجديد يمر بعيداً إلى الشرق من جبل تو وبقيت هذه المنطقة يلفها الغموض[13] ، وكانت المعلومات التي جمعت عن التبو رشادة حتى زيارة غوستاف ناختيغال في عام 1869 عبارة عن معلومات كان الرحالة يتلقونها من أفواه الآخرين ، بيد أنها لا تخلو من المصداقية .

ويبدو أن التبو الشماليين الذين كانوا يقطنون هذه المنطقة الهائلة يتوزعون المنطقة مع الطوارق ففي مناطق شمال وشمال شرق التبستي وصولاً إلى واحات الكفرة ، وفي أقاليم جنوب وجنوب شرقها يقطن التبو ، إما أقاليم غرب وشمال غرب التبستي وجنوبها الغربي يقطن الطوراق، ومن قبائلهم الأخرى البيلما التي أعطت اسمها للممالح مشهورة في الطريق إلى أواسط أفريقيا، وهناك يوجد أخلاط من الناس أغلبهم من الزنوج بينما كان شيخ القبيلة التباوية يسكن في قرية ديركو على بعد مسير يوم واحد عن بيلما التي استوطن فيها التبو والكانوري بأعداد متكافئة ، أما بقية أقاليم تبستي وكوار فأغلب سكانها من التبو . كما استوطنوا في أقاليم ليس لهم الأغلبية العرقية وانما كانوا ضمن جماعات عرقية أخرى مثل إقليم ماو إذ كانوا ضمن أولاد سليمان والمغاربة والحساونة وشيتياني دوقودا وجاقيدا ، واقليم ريق ريق واستوطنوا ضمن بودوما التشاديين والقوران[14] . ويعتقد أن التبو لاسيما الشماليين منهم ، من الأقوام الحميرية السامية انتقلوا من بلاد اليمن إلى وادي النيل ، ومن هناك تقدموا نحو الكفرة التي أخذت اسمها من

تكوينهم الديني والفكري ، ومنها انتشروا في الصحراء الكبرى أو أقاليم جنوب الصحراء. ويرى الفرنسيون بكلام لا تدعمه الدلائل العلمية القوية أنهم جاءوا من وادي النيل فاستقروا في بوركو في حدود القرن الثاني قبل الميلاد ومن هناك انتشروا في هذه المنطقة الواسعة[15] ويرى غيرهم غير ذلك. وبحسب الرأي الأخير أنهم نتاج للتزاوج بين الطوارق والأفارقة الزنوج أو بين الجرمنت القدماء والزنوج [16]، ولكن كيف ترك هؤلاء المياه الجارية والخصب وهاموا في الصحاري القاحلة ما لم يدفعوا من أقوام أشد بأساً ، وهذا ما لم يتطرق إليه أحد . وأورد غيرهارد رولفس ذلك اثناء زيارته للكفرة " **في الاتجاه الجنوبي الغربي من أوجلة وعلى مسافة عشرة أيام من أوجلة أو 200 ميل يعيش الكبابو وعلى مسافة بضعة أيام يعيش في برقو الدازا وكلاً الشعبين من التبو ويقال لهم الكفرة، وأن بلادهم جميلة وخصيبة وأن لغتهم تشبه زقزقة العصافير**"[17].

وشعب التيدا هم أقرب إلى الطوارق والأمازيغ(البربر) منهم إلى الزنوج بينما يقترب التبو الجنوبيون من العناصر الزنجية ، مع صعوبة تحديد فاصل عنصري لوني أو جسماني بينهم ، فألوانهم بادية التدرج من اللون الأبيض الضارب إلى اللون النحاسي وصولاً إلى اللون الأسود الداكن المائل إلى الصفرة ، وكذلك أشكال وجوههم من الأشكال البيضوية والأنوف الأقنية وفتحات أنفية أضيق مما لدى الزنوج والشفاه الرقيقة وصولاً إلى الأنوف الفطساء والشفاه الغليظة وأشكال الوجوه المستديرة ذات الطابع الزنجي، كما تتباين الشعور من الاسترسال ، حتى الشعور المجعدة الزنجية[18].

وهم متوسطو الطول مائلون إلى القصر ، ولا يندر بينهم طوال القامة ، وأطرافهم متسقة وسواعدهم وسيقانهم تبدو هزيلة ، وهم نحفاء وأجسامهم خالية تماماً من الشحوم بفعل السغب المستمر وهزالهم لم يؤثر في صحتهم بل كان ذلك مدعاة لشدة تحملهم وقوة بأسهم في العمل والجري ومقدرتهم العجيبة في التعايش مع الحرمان المستمر، فهم متناسقو الأجساد على العموم وأنوفهم دقيقة أو فطساء قليلاً و وجناتهم غير ناتئة وشعورهم ناعمة مسترسلة لا تنم عن جذور زنجية [19] ، وفعل المناخ الجاف فعله في صحتهم ، التي كانت نتيجة لمزيج من عوامل المناخ والبيئة الجغرافية الصخرية القاسية والقواعد السلوكية التي تعيب الإفراط في الأكل لاسيما إذا كان ذلك الأكل مكلفاً . أن الليونة وخفة الحركة أتت نتيجة للطبيعة القاسية ، فوجودهم في هذه البيئة حيث الهواء الجاف النقي وغذائهم القليل البسيط ، وقدرتهم التي لا تضاهى على تحمل السغب والعطش والتعب لهي انتخاب طبيعي حقيقي لهم [20].

أما نساءهم فقد وصفن بالوجوه البيضاوية الشكل والتقاطيع المنتظمة والأطراف الرقيقة الرائعة التكوين والمظهر الخارجي الذي ينبئ بالإباء والشمم والليونة والرشاقة ، لاسيما عندما يبلغن مرحلة الشباب القصيرة ، إذ يبززن قريناتهن من فتيات الصحراء روعة وجمالاً و"**عيونهن تنفذ كالسهم وتخترقك حتى القلب** " على حد وصف الشيخ محمد بن عمر التونسي [21] ، قبل أن تضمر أجسادهن وتتحول أثداءهن البديعة التكوير إلى طيات جلدية متدلية خالية من الدهون ، ويذهب ذلك البون الشاسع في اللون بين أسنانهن الناصعة البياض ولون بشراتهن بفعل مضغ التبغ مع النطرون الذي يشاركن فيه الرجال، فيصبحن بارعات براعة الرجال بزرق عصارة التبغ الخضراء من بين فلجات أسنانهن، وربما يماثلن الرجال في قسوة تقاطيع وجوههن وحركاتهن الواثقة [22].

وكان التبو على العموم يسيرون حاسري الرؤوس أو يعتمرون طواقي من الصوف أو الوبر أما لبس العمائم فانهم يعتمرونها ليكملوا بها اناقتهم أو لأغراض اعتبارية، فكلما كبرت العمامة أو طال قماشها كلماً ربأت مكانة من يعتمرها ، أو أنهم يعتمرونها ليستدلوا على تدينهم ، وإذا رمى التبوي عمامته إلى الأرض معنى ذلك ، أن الإهانة التي لحقت به كبيرة ولا يمحوها إلا الدم ، وقد يتلثم التبوي إذا وجد ذلك ضرورياً وكانوا يلفون وجوههم ولا يظهرون منها سوى عيونهم لمواجهة ظروف الصحراء القاهرة أو لزيادة في التخفي عند السفر إلى مكان آخر لاسيما إلى مرزق ، بيد أنهم لا يرون ذلك لزاماً عليهم كما يفعل الطوارق فلا ضير ان يكشف التبوي وجهه بحضور نساء الأسرة بل أن المرأة هي التي يجب عليها أن تشيح بوجهها عنه[23].

وكانوا يلبسون جلود الخراف بصوفها شتاء ، وينزعون عنها صوفها في الصيف ، أما ملابسهم عند السفر فهي لا تختلف عن ملابس سكان البورنو ، وتتكون من قميص فضفاض أزرق اللون أو ألوان الثياب الداكنة الأخرى بما يتلاءم مع البيئة الصخرية الصحراوية لبلادهم ، وكانوا يفضلونها على الألوان الفاتحة ، ويجدون فيها متعة خاصة لاسيما إذا تركت صبغة القماش الزرقاء أو الداكنة على جلودهم آثاراً ، ومن المرجح أن تفضيلهم للقماش الداكن ناشئ عن إنه يخفي درجة الاتساخ العالية التي يصبح عليها القماش بعد لبسه لفترة طويلة بدون غسل مقارنة بالأقمشة الفاتحة الألوان ، ربما لشحة المياه اللازمة للاغتسال في الصحاري القاحلة [24] . وهم مولعون كذلك بالرقا والتعاويذ والأحجبة شأنهم في ذلك شأن رجال الصحراء الآخرين ، فهناك رقا ضد الأمراض واخرى ضد الرصاص وثالثة لأغراض الرزق والتجارة وأخرى من أجل الانجاب ، توضع على العمائم والسواعد والأعناق ، وبما في رقاب الإبل أو في قوادمها وغالباً ما تكون هذه الرقا والتعاويذ آيات من القرآن الكريم توضع في مظاريف جلدية صغيرة مختلفة الأشكال ، ومما يلاحظ أن النساء أقل اهتماماً بهذه التعاويذ من الرجال لأنهم أقل نشاطاً خارج البيوت [25].

وكان رجل التبو الراشد يتسلح برمح قصير وقوس ومقذاف أو (جنگر- منگر)[26] وسكين طويلة تربط حول الرسغ بحلقة جلدية ، وبرمح طويل يتعدى طوله ثمانية أقدام برأس حديدي بطول قدمين ، وقد يصل الجزء الحاد أو القاطع منه إلى قدم ونصف ، مزود بأشواك حادة على الجانبين ليكون أشد تأثيراً ، ويحمل التبوي معه خنجر طويل يربط بالمعصم الأيسر وعادة يصاحب الخنجر سكين صغيرة للاستعمال البسيط كقطع الأشواك أو التقاطها من أرجلهم ، فضلاً عن السيف الطويل المستقيم الذي لا يملكه الجميع ، وفي بعض الأحيان يتسلح التبو بكل هذه الأسلحة أو بعضها دفعة واحدة " **ومر بنا خمسة أو ستة من التبو وكل واحد يحمل ثلاثة رماح خفيفة وقوساً ، وكانوا أول رجال أراهم مسلحين على هذه الصورة**"[27]. وأخيراً يقتني التبوي الدرع أو الدرق المصنوع من جلود بقر الوحش وهو لا يمنح حامله حماية تامة من ضربات الحراب وعلى أية حال أن كل أسلحتهم مستوردة من خارج إقليمهم وهم بارعون في استعمالها وكانوا يتدربون على استعمالها منذ الصغر [28] . وعلى الرغم من السلاح الكثيف الذي يحمله التبو، إلا أنهم لا يتصفون بالبسالة [29].

أن غرمهم بالشجار الذي يقود في أغلب الأحيان إلى النزاع ، ومزاجهم السوداوي المتعكر بشكل دائم ، وولعهم بشرب اللاقبي[30] ، وطابع التباهي الذي يغلفون به تصرفاتهم وقدرتهم على إلباس الحق بالباطل والمماحكات السفسطائية ، جعل خصوماتهم لأسباب تافهة لا تتوقف ، ولا يكاد شجار يمر دون أن يتحول إلى نزاع تسفك فيه الدماء، ولا تكاد أجسام أي من

رجالهم من الندوب والتشوهات في الأذرع والأرجل والرؤوس والأوراك والأكتاف ، هذه خلافاً للشلوخ الثلاثة أو الأربعة على الوجنتين بطول بوصة أو بوصتين التي يضعها الرجال دون النساء ، لذا لا يجدر بالتبو لاسيما برجالهم حمل السلاح في القرى والتجمعات السكنية[31] .

أما ملابس النساء فكن على العموم يرتدين أردية زرقاء تلف بإحكام حول خصورهن مع أغطية حول الكتفين والرؤوس ، أما غير المتحضرات منهن فكن يلبسن أردية من الصوف الأسود لم يكن كافياً على أية حال لستر كل أجسامهن العجفاء وإن كان كافياً تماماً لستر عوراتهن ، فعندما يلف ذلك الرداء على الجانب الأيمن وتربط أطرافه على الكتف الأيسر ليترك أحد الفخذين وأحد الثديين عاريين تماماً[32] .أما الفتيات فكن حاسرات الرؤوس عاريات الصدور. بينما يسير الأطفال من الجنسين عرايا تماماً حتى البلوغ ،**"كانوا بأجمعهم عراة، حتى فتاة بعمر عشر أو اثنتي عشرة والتي مال بها دلال الأنثى بحيث ظفرت شعرها جدائل صغيرة كما هي عادة البالغات"**[33]. وعلى الأعم تحلق رؤوس الصبية الذكور ويترك لهم خصلات وسط الرأس تسمى بالعربية الشعاف أو خط من الشعر من مقدمة الرأس حتى المؤخرة أشبه بريشة الخوذة الرومانية" **مما يضفي على الصبي منظراً مضحكاً"** [34] .

وكانت النساء ينظمن شعورهن على شكل ضفائر تتدلى إلى الخلف بعد أن تدهن بالزيت وتضفر المتزوجات شعورهن في ضفيرتين صغيرتين على كل جانب ، وكانتا تزينان بحلقات من الجلد أو الفضة أو العاج أو عقود مختلفة من الخرز ، وتدهن المطيبات كالقرنفل والقرفة واللبان والمحلب ، ويستعملن الكحل والحناء وزيت الشيح ، وكن يتحلين بأساور تلتف حول معاصمهن من الرسغ إلى ما فوق منتصف الساعد تصل إلى اثنتي عشرة سوار من العاج أو العظام أو من القرون وأساور أخرى فوق الأكواع من العقيق أو الودع وأخرى مماثلة من الودع حول الأعناق ، وحلقات من النحاس وفي بعض الأحيان من الفضة تلتف حول الكواحل والأقدام الحافية البديعة التكوين **" ذات القوسين الشامختين التي تثير حتماً حسد الكثيرات من السيدات الأوربيات المتأنقات بهذا الجمال الفطري شبه الوحشي "**[35] ، ولا تكتمل زينة المرأة إلا بوضع زمام من المرجان الحقيقي أو العاج أو من عظم القرون أو حتى نوى التمر في ثقب على المنخر الأيمن ، وتلاقي فتيات التبو الأسيرات إقبالاً كبيراً من قبل تجار الرقيق لما يتمتعن به من جمال بين الرقيق مما يكون مدعاة لرفع أسعارهن [36] .

ومما رفع قيمة المرأة التبوية المعنوية امتيازها بسمعة طيبة إلى حد بعيد بين نساء الصحراء ، فهي متحفظة نظيفة تهتم كثيراً بنظافة اطفالها ، مقارنة بغيرها من نساء الصحراء وهي معروفة بعفتها العالية، واظهار قدرة رجولية في ادارة بيتها واخلاص شديد في غياب زوجها ، لذا كان مرابطو القطرون والتجار الدائمو السفر والاغتراب إلى اتخاذ زوجاتهم من بينهن ،على الرغم من أن لغة التبو غير الشائعة احدى موانع ذلك الاتصال [37]. كما اضطلعت نتيجة لسفر الرجال الدائم بدور كبير في مجتمع التيدا في رعاية الأسرة وإدارة شؤون المنزل ومتابعة الحيوانات وقد يصل بها الحال إلى إبرام عقود البيع والشراء وتغيير مكان السكن والسفر لمسافات قصيرة ، وتعد الصناعة البدائية في مجتمع التيدا مثل دباغة الجلود لصناعة الملابس أو معدات السفر كقرب الماء وتحضير القطران من عظام الحيوانات أو نوى التمر لطليها حتى تصبح ملائمة لحفظ الماء ولمعالجة قروح جلود الجمال وصناعة سروج الجمال ونسج الحصر من أوراق أشجار نخيل الدوم أو نخيل التمر وصناعة الحبال من ليف نخيل الدوم من اختصاص المرأة ، مما أسهم بدرجة كبيرة في صقل مواهبها مما رسخ الاعتقاد أن المرأة في التبستي ربما أكفأ من الرجال ليس في مضغ التبغ ورمي البصاق المخضر من بين فلجات الأسنان بعيداً فحسب ، بل في متابعة الأعمال المنوطة بها رغم أن زحمة العمل في البيت والمرعى أو متابعة التجارة ، مما أفقدها كثيراً من ميزات أنوثتها ، ألا وهو الحياء ، بما لا يخل بعفتها أو بولائها لزوجها[38]، وعلى الرغم مما تحمله التبوية من سلاح بما يتلاءم مع قدراتها الجسدية ، فهن يحملن على أوراكهن تحت ملابسهن خناجر صغيرة بطول الكف أو هراوات (نبابيت) مربوطة بإحكام وراء أكتافهن، ولا تندر حوادث القتل بينهن أو بأيديهن [39] ، إلا أن التبوية خجولة إزاء زوجها لا تتناول الطعام بحضرته ولا تكلمه إلا وهي مشيحة بوجهها عنه إلى الطرف الآخر ، ولا ترغب في ذكر اسمه مجرداً بل غالباً ما يرد ذكره في سيل كبير من الحشو والإطناب فيصبح أبا فلان أو فلانة ، لاسيما إذا أصبح لديه أطفال ، لذلك تقع التبوية التي لم تنجب بعد في حرج شديد عند الكلام عن زوجها وليس لها أن تكنيه[40] .

وفي حدود مطلع القرن التاسع عشر كان التبو لا يعرفون صناعة الخبز، وهم لا يعتدّون كثيراً بطبخ الطعام الذي غالباً ما يؤكل نيئاً لاسيما اللحوم دون طهي ويعيشون عليه لبعض الوقت . وكانوا يعتمدون في غذاءهم على حليب الجمال والماعز بالدرجة الأولى، وحبوب عصا الراعي وثمار نخيل الدوم والبلح أو الدخن ، والصرغوم والنقفولي بنوعيه البيضاء والحمراء غذاءً رئيساً للسكان في برداي فضلاً عما يزرع من أصناف أخرى من الخضر في البساتين مثل القرع واليقطين والبطيخ الأحمر والفاصوليا والباميا والملوخية بكميات قليلة جداً[41] . وهم على العموم لا يذبحون حيواناتهم حتى إذا أشرفوا على الموت جوعاً ،إلا إذا أشرفت تلك الحيوانات ، لاسيما الجمال على الموت فإنها تذبح ويقدد لحمها ويجفف بالشمس ويدق مع العظام بقطعة من الحجر على حجر صلب . أما ذبح الحيوانات كالماعز مثلاً فهو لا يتم إلا في حالات الاحتفالات العائلية الكبرى مثل الزواج أو الختان وكالعادة لا يترك من بقايا الحيوان شيئاً بمساعدة الحجر . بيد أنهم في التبستي أو بلاد التبو يأكلون وجبة غذائية تسمى "تابركة" من جمع محصول الحنظل وتجفيفه ثم سحقه وتذريته لاستخراج البذور التي تخلط برماد بعر الإبل وتطحن ثم تغلى مع أوراق شجر الأثل ثم تغمر بالماء البارد وتكرر هذه العملية أكثر من مرة لإزالة المرارة منها ثم تجفف تحت الشمس وتطحن مرة أخرى ويضاف لها التمر المطحون أيضاً لتكون وجبة ذات قيمة غذائية مناسبة [42] .

ويوصف التبوي بشدة تحمل الجوع والعطش لأيام وربما يعثرون على جمل في المساء فيذبح ويقطع ويؤكل نيئاً كل الليل فما أن يحل الصباح حتى يأتوا على آخره ولم يتركوا منه شيئاً . وعندما يلويهم القوت من حيث طلبوه ربنا عثروا على قطع من العظام فيطحنوها ويضيفون لها بعض الدماء من عرق أحد الحيوانان ليصنعوا منها عصيدة يقيمون بها أودهم ، وإلا فإن الفرد منهم يقيد نفسه إلى سرج جملة ويترك له حرية الحركة معتمداً على قدرته في تحديد خط سيره [43] . فأورثهم الجوع المتواصل وندرة الغذاء حيوية ورشاقة أكثر من غيرهم من سكان الصحراء ونتيجة لسرعة حركتهم سموا "بالطيور" ، كما اتصفوا بقوة النظر في الظلام

الدامس لا يضاهيهم فيها أحد ، وخفة الحركة وقدرة عجيبة على الجري حفاة الأقدام على الصخور مستعينين بأقدام صلبة متقرنة ، تجعل من العسير على أي شخص اللحاق بهم في الظلام في وسط الصخور التي يعرفونها جيداً[44].

وبسبب قوة شخصية المرأة التبوية وعفتها وجمالها لم يبالغ رجال التبو في تعدد الزوجات ، ولم يحتفظوا بزوجتين في مكان واحد إلا نادراً. أن الغياب الطويل والمستمر للرجل التبوي وجدب البيئة الطاردة والاقتصار على زوجة واحدة على الأعم الأغلب جعل عدد الأطفال قليل في العائلة الواحدة وبالتالي عدم نمو المجتمع التبوي بدرجة كبيرة[45] . ولكن تكاثر التبو أكبر بكثير من تكاثر الكانوري مما جعل الغلبة لهم بمرور الزمن، أما الطلاق عندهم فأندر من ذلك ، وإذ أراد التبوي الزواج بثانية فلا يتزوج بها إلا عندما يتحتم عليه ذلك في مكان بعيد نتيجة لانقطاعه عن بلده فترة طويلة . ويسبق الزواج خطبة قد تطول إلى مالا نهاية ، وإذا مات الخطيب فأن الخطبة تنتقل تلقائياً إلى أقرب أفراد العائلة إلى الخطيب إذا لم يكن متزوجاً . ويتكون المهر الذي تحدده الحالة المادية للخطيب من الجمال والحمير والشياه والماعز ويقدم جزء منه كمهر عند الزفاف الذي يحتفل به على الطريقة العربية بأن تحمل العروس على جمل مزين بصحبة عدد من صديقات العروس بدون إطلاق رصاص في الهواء كما جرت عليه العادة في مثل هذه المناسبات عند العرب ، ويقاد جمل العروس من قبل العريس من بيت أبيها إلى بيته ويبقى معها سبعة أيام يتم خلالها مراسيم الزواج ويذبح خلالها اثنا عشر عنزاً ،ثم يعيدها إلى بيت أبيها وينطلق في رحلة طويلة قد تمتد إلى سنوات ، ومن المحتمل أن ينحل الأب ابنته هدية تتناسب مع مركزه الاجتماعي، وعندما يعاود الزوج الهجرة مرة أخرى وتكون التبوية مسئولة عن بيتها وحيواناته خلال غيابه في المرة الثانية [46]. وعلى العموم أن الزواج والاختلاط الجنسي بين التبو والطوارق أمر نادر الوقوع ، إلا إذا اضطر الاسترقاق احدى النساء من الطرفين أن تقع في رق الطرف الآخر ، لذلك فأن هذه المجاميع البشرية تتميز بالنقاء العرقي لاسيما التبو ، مقارنة بالأمم الأخرى [47] .

كان المناخ الجاف القاسي وندرة المسطحات المائية والسباخ والتربة و الرملية الصخرية وطبيعة غذائهم البسيط والشحيح حصناً للتبو من أمراض الملاريا وحمى التيفوئيد ودودة غينيا والدودة الشريطية وحالات الجذام وأمراض الكبد الحادة والزحار وأمراض الجهاز الهضمي الأخرى ، وهي أمراض شائعة في الأقاليم الأفريقية ، كما أن البيئة الاجتماعية المغلقة والنأي عن مواطن الحضارة والمدن التجارية وقلة أعداد الجواري وتأدبهم وعفة نسائهم، جعلهم في منأى من مرض الزهري الخطير الذي كان منتشراً في فزان القريبة والمراكز التجارية الأخرى، وبسبب هذه العزلة جعل بلاد التبو في منأى من الأوبئة التي كانت تتعرض لها المدن كبرى في واداي وعلى امتداد سواحل البحر المتوسط ، مثل الكوليرا والطواعين والجدري، وحتى إذا وصل وباء ما فإنه ينحسر تماماً لعدم وجود اختلاط داخل أقليم التبستي لتباعد قراهم وانخفاض كثافتهم السكانية[48].

إلا ان ذلك لا يمنع انتشار بعض الأمراض مثل أمراض الروماتزم وأمراض المفاصل وأمراض العيون لاسيما التهابات القرنية وأمراض الجلد مثل الأكزيما والتهابات المجاري الهوائية وتضخم الأكياس الرئوية والاحتقانات المزمنة وأمراض المثانة والكليتين وهي على العموم ليست من الأمراض القاتلة ، وربما يوجد أيضاً مرض السل الرئوي، بيد إنه غير شائع . وتنتشر أمراض الأسنان بينهم بصورة واسعة لاعتمادهم في جانب كبير من غذائهم على التمر وممارستهم شرب اللاقبي ومضغ التبغ مع النطرون على نطاق واسع بين الرجال والنساء على حد سواء ، ومع تقدم العمر يذهب ذلك التباين الرائع بين ألوان الأسنان البيضاء الرائعة التكوين وألوان بشراتهم السمراء الداكنة ، وليس هناك فرق كبير بين الرجال والنساء طالما أن الطرفين يأكلون التمور ويشربون اللاقبي، ويمضغون التبغ[49].

ويعتمد العلاج بالدرجة الأولى على الكي ، لاسيما في الأمراض الخارجية مثل ، أمراض الجلد وتستخدم الزبدة المسالة على نطاق واسع كما يستعمل النطرون الكاربوني وهو متوفر في بيئتهم ، ويستخدم الحنظل والسنا والكحل لأمراض العيون والحناء، وتعد الجراحة الأكثر تطوراً في فن الطب لدى التبو حيث تخاط الجروح التي تنجم عن الخصومات بينهم ، أو خرز الجلد مع كتلة الشحم تحته ، ويحرك الخيط أو السلك يومياً من أجل التخلص من القيح الناتج من عملية الخرز، وكانوا يستخدمون أشواك الطلح المقاومة الطويلة بدلاً من الإبر في الخياطة، ويعالجون جروح الجمجمة بالدهن المغلي أو الكي لإيقاف النزيف ، ويعالجون كسور العظام بالتجبير بربط العظام إلى بعضها برباط قوي[50]. وكان الختان عند التبو يتأخر إلى عمر الثانية عشرة وربما إلى الرابعة عشرة ،على العكس من رغبة الصبيان أنفسهم بسبب الإجهاد والهزال الذي تسببه عملية الختان لهم، أو تهرباً من نفقاته المكلفة [51].

وعلى الرغم من الاعتقاد بالشياطين والأبالسة والجن بمختلف أشكالها وأحجامها ووظائفها على مساحة الصحراء في أفريقيا، إلا أن نساء التبو كن يعتقدن على خلاف بقية النساء في الصحراء بقدرة الأطباء على منحهن الذراري ، بعد أن يأسن من كرم أولئك الأبالسة والشياطين والجن وقدرتهم على جعلهن يحملن ، بل كن يعتقدن بأن قدرة هؤلاء تتعدى إلى تحديد جنس الجنين ذكراً كان أم انثى ،**" جاءت كثير من نساء التبو يسألنني دواء للحمل ، بعضهن يطلبن أولاداً وأخريات يطلبن بنات ، وكنت مضطراً لأن أخيب ظنهن وقلت لهن أن ما يطلبن ليس لدي، ولم يصدقن[قولي]"**[52] .

أما موسيقى التبو وقوامها الطبول وهي بدائية مصنوعة من قطع من جذوع النخيل المجوفة ، وتفرد الجلود على طرفيها ، فيضرب على أحد الطرفين باليد وعلى الطرف الآخر بعصا ، وتسمى "دنقا "ولديهم نوع بدائي من القرب يعزف عليها تسمى "الزكرا " فضلاً عن طبلة أصغر من الدنقا تسمى "دبدبة أو ضبضبة" . والتبو مثل بقية قبائل (شعوب) الصحراء مغرمون بالرقص الجماعي على ضرب الطبول، إذا تشكل النساء حلقات راقصة، وهن يرددن أغاني بشكل جماعي ، ومن خلفهن يردد ضاربو الطبول الأغنية ذاتها "**ومن المعتاد في هذه المناسبة[المولد النبوي] أن ترقص فتيات المدينة في كل مكان، وسرعان ما تعالى قرع الطبول وبلغت الأسماع موسيقى القرب. . . وكانت العجوز تغني والفتيات يرددن كلمات الأغنية، ووقف ثلاثة رجال ينشدون ويقرعون الطبول بأيديهم ، بينما كانت الفتيات يتقدمن ويعدن إلى الوراء مع النغمة، وفي الوسط وقفت الفتيات الأطول ، وشكلت الفتيات الأصغر سناً الجناحين . . .وواضح أن الحركة الرئيسية في الرقصة هي حركة تراتبية من اليمين إلى اليسار مع دقات الطبول وكل فتاة تمسك بطرف شالها والطرف الآخر يغطي الكتف ، وفي حشمة تامة ووقار دون إيحاءات جنسية في**

اشارة معينة يركعن، وتستمر حركة الغناء والرقص ، . . .وسرعان ما تنطفئ المشاعل وتخبو الأصوات ليعاودن الرقص في مكان آخر"(53) .

ويبدو أن الظروف الطبيعية ذاتها التي حمتهم من الأمراض وطورت ذكائهم الفطري ، كان لها أبلغ الأثر في تكوين أنماط حياتهم العاطفية الأخلاقية المجبولة بسعة الحيلة وانعدام الضمير ، فأكسبهم الفقر هوساً متواصلاً لجمع ما يفيض عن حاجتهم، وإتباع الطرق الملتوية في الوصول إلى غاياتهم، فهم لا يتركون أية فرصة للإفلات من أيديهم وكانت رغائبهم متجهة نحو غاياتهم بشكل دائم، ولا مكان في هذه البيئة المجدبة للقيم الطوباوية الضارة كالكرم والوفاء وسمو الأخلاق ، والترفع عن توافه الأمور، ولا غرابة البتة أن رأيت التبوي يقتل من أجل أشياء عديمة الجدوى أو مقتنيات هزيلة، وهو في العادة قاسياً مسترياً مختالاً كذاباً مستتراً بالسرية التامة في إشادة منزله أوفي ممارسة أعماله، لا يمكن الوثوق بهم ،" **خبثهم باتساع الصحراء** " يحق لزعمائهم الاستيلاء على أي شيء يرغبون به من القوافل الأفراد المارين في أراضيهم (54).

وعلى العموم أهم ما يتصف التبو هو الشراسة والغدر والتوحش وخبث الطوية والجشع وثقل الظل والوقاحة والتهور والتسول بغطرسة ولا أحد يذكر لهم صفة حسنة على الإطلاق، "**كان كلوكومي رجلاً قوي البنية [لا ينبئ مظهره عن مخبره]والذين عرفوه شهدوا بحقه شهادة طيبة نسبياً بأن وصفوه بأنه الأقل سوءاً بين أفراد قبيلته الذين يتسمون على وجه الإجمال بأنهم أوغاد " . . ، "أن خبث هؤلاء القوم باتساع الصحراء ذاتها" . . .** "وأشارت كنتافو بحزم "**. . . لا تذهبوا برفقة أرامي . . . ومن الذي سيعرف ماذا يحل بكم ؟ ألست أنا التبوية أولست أدرك جيداً كيف أن قومنا مراوغون وغادرون؟ "**(55). ولا يقارن الطوارق في أمانتهم وكرم أخلاقهم وفروسيتهم بالتبو المعروفين بالخيانة والغدر والجشع واللصوصية. وهم على العموم فضوليون ملحاحون و"**سراق ولصوص بدون استثناء** "(56) ونهابون ومتسولون" **بعد وجبة العشاء وعلى حين غرة قفز الأفاق الخفيف الحركة مستولياً على البندقية بيد وحاملاً على أسلحته الخاصة باليد الأخرى ولاذ بالفرار"** وغالباً ما يضمنون تسولهم تهديد مبطن من شاكلة ، " **رأس المرء أغلى من المال. . . أو الممتلكات الكثيرة تهلك صاحبها"**(57) .

وعلى الرغم من إجماع الرحالة والمستكشفين على تدني أخلاقيات التبو واسترابتهم ونفورهم وغدرهم وجشعهم إلا أن تلك الأخلاقيات والسلوكيات لا تنحدر كثيراً عن مستوى أخلاقيات قبائل وشعوب الصحراء النهابة في القرن التاسع عشر ، فمثلاً من العيب والعار أن ينهب التبوي في حدود القبيلة ، كأن يجمع مهراً لخطيبته ، أو يثير إعجابها . كما أن الثأر لا ينتهي بالتقادم و" **لا يغسل الدم إلا بالدم** " وتبقى الثارات مستمرة ، فكل ثأر يجر وراءه ثأراً مالم يسوى مادياً في حالات نادرة ، أو أن يقدم الجاني للبيع تعزيراً له ، أو أن يلجأ الجاني الذي يتمكن من الفرار إلى تغيير أسمه ويعيش بقية عمره بهذا الاسم أن حوادث الشرف عند التيدا نادرة وإن حدثت فأنها تضع الجاني تحت طائلة الثأر من قبل الأب أو الزوج المنتهك الكرامة (58) .

أما إذا التقى تبويان في طريق ما في جو من الريبة الدائمة لابد لكليهما تبادل آداب التحية التبوية بعد ان يشدا لثاميهما على وجهيهما ولم يظهر كل منهما للآخر سوى عينيه وقد أمسك كل منهما برمحه ومقذافه وكان لابد لكل منهما ان يجلس على عقبيه بمسافة ستة أمتار عن الآخر ويهزان عقبيهما وظهريهما وجهاً لوجه أو ظهراً لظهر، لاسيما في حالة وجود خصومة سابقة بينهما (59)، في حالة تأهب نتيجة لحالة عدم الثقة المتفشية في الصحراء ، ثم يبتدئان بالتحية المطولة بكلمات " **الحين كنا هو**" أو "**لحد أن تشيدا أو لهاني هيني أو كله هاني** "ويستحسن أن تكرر كلمات التحية أو المجاملة وردودها أكثر من اثنتي عشرة مرة مع كلمة " **إهيلاً**" بإيقاع عميق ومضخم ومطول للكلمة مع إضفاء أقصى ما يمكن من الوقار على أن لا يكترث أحدهما بالآخر ، لعلهما يستطيعان أن يسبران غور بعضهما البعض ومعرفة غايتيهما، وكل منهما ينظر في الفراغ في المدى البعيد بمستوى النظر أو أن يثبتان ناظريهما بالأرض ونادراً ما تلتقي نظراتهما ، وبعد هذا التكرار الممل يخلص الاثنان إلى الانتقال إلى السؤال عن أمور أكثر أهمية ،مثل الأمن على الطرقات ومواقع الأعشاب والحركة التجارية وأقرب بئر وغالباً ما تقطع هذه الأسئلة والإجابات بكلمة "أهيلاً " طويلة بطول سلم الصوت الموسيقي بالتداخل مع الأسئلة النمطية ، ثم يتقدم أحداهما إلى الآخر بالمصافحة بالأيدي. أما إذا كانت التحية عن سابق معرفة فان المصافحة يتبعها تمنيات بأسعد الأوقات مثل "**الهاني زيدا**"(هل يومك بخير)، أو "**دوقي صلاحه**"(هل كانت ليلتك سعيدة)، أو "إنتوقضيني"(كيف قضيت قيظ النهار) أو "كله هاني " كيف الصحة وتستعمل لأغراض المجاملة الاعتيادية ، و "**دقيسوها لاها**" كلمة مجاملة لأول النهار و "**انتوقدني**" تحية لما بعد الظهر، أما الرد في كلمة "**أهيلا** " بدون إطالة ، وغالباً ما يختم اللقاء المثير بتحية الوداع فهي "**الله نكيفك**" وهي (يحفظ الله) (60).

وفي اعتقادي المتواضع أن ما تحمله التبو من القتل والتهجير والاسترقاق من جيرانهم الأقوياء مثل الطوارق، أعداؤهم التقليديون، والعرب من أولاد سليمان والزوية وعربان الشاطئ ، فضلاً عن جدب البيئة الصحراوية رسخت هذه الطبيعة الغادرة في حالة ألا وعي لديهم ، وأورثتهم كل هذا التوجس والريبة والقسوة في التعامل، فمثلاً لم يتحولوا إلى الاستقرار، واستمروا في هجراتهم الدائمة ، يعيشون بشكل متفرق وليس لديهم تجمعات سكانية كبيرة يمكن أن تأخذ على حين غرة أو يسهل السيطرة عليها نتيجة لمطمع بغنيمة لذا تفرقوا في الوديان المنيعة على الدخلاء التي توفر لهم في ظروف الأزمات الحماية والسكنى والمرعى الآمن لحيواناتهم القليلة العدد والشحيحة العطاء. ومنزل التبو لا يعدو عن كونه محطة بين رحلتين، وهو لم يكن منزلاً بالمعنى الدقيق للعبارة وانما كومة من جريد النخل المدعم بالوحل أو كومة من الحجارة المغطاة بالقش وسعف النخيل كوجر الكلب، وإذا أراد أحد دخوله عليه أن يدخله حبواً، وإذا لم يعودوا لمنازلهم السابقة يأتي أناس آخرون ليحلوا بها. وجرت العادة أن يبنى في أماكن موحشة ومنعزلة بين الصخور، ولا يرغب التبوي أن يعرف مكان بيته أحد ، حتى لا يحل أحد عليه ضيفاً أو أن يأخذ على حين غرة (61).

وهم على العموم قطاع طرق لا يشق لهم غبار ومما يؤسف له أنهم استمروا في غيهم حتى بعد أن خضعوا أسمياً للدولة العثمانية ، ففي عام 1869 نزحت قرى تبوية كاملة من فزان خفافاً دون ممتلكات راكبين جمالهم إلى بلادهم في وادي برادي ، نتيجة لتحسبهم من الأعمال العدوانية التي قد يقوم بها عرب فزان رداً على أعمال النهب التي قاموا في واحة جبادو التبوية في شمال غرب كوار ضد أهالي فزان بأن صادروا قطيعاً من الإبل وأسروا من وجدوه فيه من أهل فزان (62) .

يعد مجتمع التبو مجتمعاً طبقيا بدوياً ، إذ يقسم إلى نبلاء (ميناوات) ومواطنين عاديين ، إذ أن هجرة أعداد كبيرة من فئة الناس العاديين في القرن التاسع عشر إلى خارج الإقليم بحثاً عن فرص أفضل للعيش، رفع نسبة أبناء الطبقة النبيلة في مجتمع التبو إلى واحد مقابل ثلاثة أفراد ، وعلى الرغم من الجوع المهلك فأن النبيل التبوي الجائع المهلهل الراعي بقي يتيه فخراً بأصالة محتده واعتداداً بنسبه ، لاسيما أمام الزراع في برداي ، بيد إنه لا يستحي من وضاعة عمله [63].

وكان مجتمع التبو يشتمل على عناصر منبوذة وهم الحدادون الذين يلحق بهم الاحتقار نتيجة طبيعة عملهم " المليء بالجرعات السحرية والمهارات الشريرة "مما جعلهم خارج مرتبة المواطنة، وإذا وصم أحدهم بأنه حداد فأن تلك إهانة لا يغسلها إلا الدم ، ولا يتزوج الحدادون إلا من نظرائهم الحدادين ، ولا أحد يتزوج منهم تحت أي من الظروف ، ومن الملاحظ أن لا أحد يمكنه إلحاق الأذى بحداد مهما كان عظم جريرته ، إن حمل السلاح بوجه حداد يعد عاراً لا يمحى بسهولة . وينضوي تحت هذا المسمى الصيادون والدباغون وأرباب المهن الأخرى، وهؤلاء جميعاً من الأحرار ولا يتميزون عرقياً عن التبو ، بيد أن مهنهم ألحقت بهم كل هذه الضعة [64].

يحتل الدين الإسلامي المحل الأرفع في التكوين الفكري للتبو على الرغم من أميتهم وجهلهم المطبق، إلا أنهم متمسكون بكونهم مسلمين**"[نحن مسلمون] مسلمين موحدين عليمين بأمور الدين من قراءة القرآن والعلم الشريف واداء الزكاة لمن له نصاب وصيام شهر رمضان وحج البيت الحرام وكان احترامنا بحرمة الإسلام"**[65] ، وليس لديهم ذاكرة واعية بتاريخهم وتراثهم الإسلامي ، بيد إنهم كانوا يشعرون بالخزي عن ماضيهم الوثني ، ويبدو أن الدين الإسلامي دخل بلادهم منذ القرن السادس عشر، ولم يبق على وثنيته منهم سوى قبائل وندلة Wandela وقوندةGunda، وتراتيا Traita ، وهي قبائل وثنية من غير المشتغلين بالتجارة من سكان الصحراء [66] . وهم يؤدون الصلاة كما كان المسلمون يؤدونها ، ويصومون رمضان إسوة بغيرهم ويذبحون ذبائحهم على الطريقة الإسلامية ويدفنون موتاهم على وفق الطريقة الإسلامية ، ولو أن قبور موتاهم تحفر بعمق أكبر ترص عليها أحجار أكثر ، ولا يقيمون الحداد كما كان أهل فزان يقيمونه، ويمارسون الختان كما يمارسه المسلمون ويبالغ رجالهم في حمل المسابح بأيديهم تظاهراً بالتدين أي خلال مئات السنين مارسوا مظاهر العبادات الإسلامية دون التوغل في جوهر الدين[67].

ويبدو إن وصمهم بالكفرة **"ماذا يعرف هؤلاء الكلاب عن الإيمان بالله ورسوله"** يستند إلى تحلل بعضهم في إداء بعض الفرائض الإسلامية ، وجهلهم التام باللغة العربية أداة التدين، كما هي الحال عند معظم سكان الصحراء، لاسيما ممارسة فريضة الصيام فهم يصومون بداية الشهر ونهايته، وبعض أيام وسط الشهر، بيد أنهم يعون مقدار المعصية التي يرتكبونها بتعاطيهم اللاقبي، وكانوا يؤمنون إيماناً عميقاً بقوة النصوص القرآنية الخارقة في شفاء الأمراض أو دفع النوازل أو جلب الرزق لذلك كانوا يبالغون في تعليق الآيات القرآنية المحفوظة جيداً في محافظ جلدية على أجسادهم أو رؤوس إبلهم وقوادمها ،وسبق أن أشرت إلى ذلك . ويبدو أن من يصمهم بالكفر أو التحلل من إداء الفرائض الدينية يبرر لنفسه اضطهاده لهم [68] .

أدى السنوسيون دوراً كبيراً في حياتهم إذ هذبوا من طباعهم الجافة وعملوا على إمالة رؤوسهم بتقديم الهبات والهدايا لأمرائهم وكذلك لمن يحضر صلاة الجمعة لاسيما في الزوايا، وفي زيارته للكفرة في عام 1895أثنى صادق المؤيد العظم على أخلاقهم ووقارهم وترفعهم عن توافه الأمور[69]. وللزوايا والدعاة السنوسيين الفضل الكبير في إعادة إسلامهم وترسيخ الإسلام في نفوسهم ، وأصبح السيد محمد العابد القاضي الذي كانوا يلجئون إليه طلباً للعدل ، وحلت الرحلة إلى الكفرة بدلاً من سرقة الجمال أو اقتراف كوسيلة من الشاب لجلب اهتمام زوجة المستقبل ، وأصبح التسمي بأسمائهم أمراً مستحسناً من قبل التبو ، ويقال أن السنوسيين استخدموا النساء في نشر دعوتهم التوعوية من خلال إشاعة التعليم بينهن وتعليمهن القراءة والكتابة ، وفي عام 1874 كان عدد التلميذات في كوار أكثر من التلاميذ [70] . وعلى الرغم من كل ذلك لم يؤسس السنوسيون الذين أذكو في نفوسهم كل هذا الحماس الديني، لهم زاوية في التبستي رغم أن وادي برداي هو مكان مناسب لمثل هذا العمل ، وأن أقرب داعية ديني سنوسي يقبع في واحة واو البعيدة جداً في طرف فزان الشرقي، ومن هناك مارس السنوسيون سلطاتهم الروحية على التيدا [71] .

ويعد المرابطون بينهم ذوو مكانة رفيعة فهم أقربائهم بحكم رابطة الدم ، بيد أنهم يتمتعون باحترام كبير بين الطوارق ؛ أعدائهم التقليديين ، لذا فهم الذين يكون بمقدورهم السفر على الطريق إلى برنو دونما وجل أو خوف على حياتهم[72] . وإلى الشمال يقع الجزء الشرقي الأقصى من فزان وتفصلها عنهم صحراء غير مأهولة تمتد حوالي أربع دوائر عرض وفيها مجموعة واحات واو وفيها مقر لزاوية سنوسية أسست في عام في ستينيات القرن التاسع عشر ، حيث كان التبو يواظبون على الذهاب إلى هناك من اجل التزود الروحي ، وبعد سفر خمسة عشر يوماً باتجاه الشمال الشرقي يصل المسافر إلى مجموعة واحات الكفرة التي كانت من مواطن التيدا أو تبو رشادة قبل أن يطردوا منها من قبل قبيلة الزوية قبل القرن الثامن عشر . وفي عام 1808 دخلت الكفرة تحت ظل الدولة القرمانلية ، ودخل من تبقى من التبو حظيرة الإسلام ، أما في العهد العثماني الثاني فلم يكن للعثمانيين سطوة أو سيطرة حتى ظهرت السلطة السنوسية في نهاية القرن التاسع عشر ،عندما نقل محمد المهدي السنوسي مقر ملكه إليها في عام 1895،فصار الذهاب إلى هناك يحمل قدسية كبيرة في حياة التبو، الذين أصبحوا يعدون أنفسهم رعايا سنوسيين دون أي شيء آخر، ولما قام حافظ باشا والي طرابلس بتنفيذ أمر السلطان العثماني بتشكيل تبو رشادة أو تبو كوار خاطبه المينا رمضان ، **" أن بلاد التبو ليست لي بل هي للسيد السنوسي، آتوني من متبوعي بأمر وأنا أسلمها لكم"** [73].

ولم يقال بحق السيد السنوسي كلام أبلغ من هذا الكلام ولا موقف أكثر وضوحاً منه، وبدا واضحاً ذلك التأثير على حياتهم وإقلاعهم عن الغزو والسلب ، بل أنهم وقفوا في بعض مواقفهم ضد الغزاة لاسيما إذا كان الغزاة من الطوارق فكان ذلك مدعاة للعرفان من قبل السلطات العثمانية **"إلى الأجلين المحترمين كافة ميناوات تبو رشادة . . . أن متصرف فزان عرفنا بأن بعض التوارق الذين بثاير وجوارها سرقوا أكثر من عشرين بعيراً من توارق قضاء عتبة ومروا بهم [بها] عليكم وعرفكم بقطع طريقهم وردوها منهم وإنكم مسكتوها وسلمتوها لأربابها. . . أن حسن مساعيكم مشهود بها وخصوصاً في إمرار القوافل وتسهيل لوازمهم وانكم تستحقون الثناء الجميل. . ."**[74]، وما لم يغزو من جهة من الجهات التي كانت تهدد وجودهم عند ذلك

يكون ردهم عنيفاً ، إذ استمرو في دفاعهم عن إقليمهم حتى تمكن الفرنسيون على إجبارهم على الإخلاد إلى السكينة بعد الحرب العالمية الأولى ، عندما أصبحوا تحت سيطرتهم .

النشاط الاقتصادي والسياسي للتبو في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين

يعيش التبو في مجموعات من القبائل الرحل التي كانت في بحث دائم عن الماء والكلأ ولا يقيمون في الواحات إلا في اوقات جني التمور . وأعاقت الطبيعة العصية لبلادهم التواصل مع العالم الخارجي وأمنت استقلاليتهم وأمنتهم من جيرانهم الأقوياء ، من جانب آخر لم توفر بلادهم عيشاً رغيداً لهم إذ كانت الجمال عماد ثروتهم ، وتمتاز بقدراتها على التعايش مع بيئتهم القاسية وحمل الأثقال وقوة تحملها وجلدها على التسلق ، وقدرتها على تحديد الاتجاهات ، وتوفيرها لأبسط مقومات استمرار الحياة مثل الحليب ، واللحم في حالات نادرة، وفضلاً عن ذلك هي عماد تجارة الصحراء، إلا أن هذه الحيوانات المهمة المختلفة عن جمال الساحل لم تكن كافية لديهم لتوفر لهم ثروة يمكن أن يتاجروا بها ، وأن أعدادها لا تكفي لتغطية الطلب عليها لأغراض الكراء أو لسد حاجة التبو انفسهم[75] . وعلى الرغم من أنهم يعدون أنفسهم تجاراً،" **إلى صاحب الدرجة العلية. . . نحن جماعة تبو أهل كاوار من قديم الزمان المجاورين إلى فزان وصنعتنا ودأبنا التجارة وخدمة الحلال** "[76] ، ووقوع منطقتهم على الطريق التجاري من فزان إلى واداي أو ذلك الطريق الذي يربط بنغازي و واداي الذي أفتتح أخيراً، إلا إنهم لا يمتلكون أو ينتجون ثمة منتوج يمكن أن يتاجروا به ، فما كانت بطون الأودية توفره من محاصيل زراعية لا يكاد يسد حاجتهم إلى الغذاء ، كما أن السنا وهو محصول مهم بالتجارة الصحراوية ، أصبح بدون جدوى في سوق مرزق منذ أن صدر الطوارق هذا المنتوج إلى السواحل بكميات كبيرة وبكلفة أقل[77] .

وأما الأغنام الضخمة ذات الأذناب الطويلة ، ويكفي جلد نعجة واحدة ليكون معطفاً شتوياً أو فراشاً مناسباً لرجل بالغ ، ولا يمتلك التيدا أعداداً كبيرة منها لأغراض التصدير ،إذ أن المورد الرئيسي لهم يتكون من قطعان كبيرة من الماعز الضئيلة الحجم القوية التي تسعى متسلقة بين الصخور للحصول على غذائها بشعرها القصير الناعم الداكن اللون[78] . بيد أنهم يسدون النقص في الصادرات أو لتغطية مشترياتهم من السلع الضرورية بكميات من جلود بقر الوحش أو الودان. كما أن منتجاتهم الصناعية البدائية تبدو عديمة الجدوى فضلاً ، عن أنها بالكاد تسد حاجاتهم لتلك المنتجات مثل الحصر لتسقيف أكواخهم أو القطران أو المنسوجات البدائية أو القرب، وسبق لي الإشارة إلى بعضها في الصفحات السابقة ، وليس بإمكانهم الحصول على رقيق إلا بصعوبة بالغة، وكان هذا كله أنهم لم يحرزوا أي تقدم اجتماعي وما احتكوا بأية ثقافة دخيلة أو حضارة أجنبية [79] .

كان التبو تجار رقيق سيئين **"وفي نهاية شهر أغسطس[آب ،1818] وصلت قافلة كبيرة من عرب طرابلس والتبو . . . فقد وصل العبيد مجهدين تماماً وكانوا يحركون أقدامهم المتورمة بصعوبة بالغة ، يحملون على أكتافهم أحمالاً من الحطب وحتى الأطفال الصغار . . . ولم يكونوا سوى هياكل عظمية . . . بينما ركب سادتهم الجمال وفي أيديهم السياط يلهبون بها ظهور[هم]"**. ولا تلقى المشاعر الإنسانية عندهم قبولاً، وهم ينقلون رقيقهم مقيدين شبه عراة أو عراة تماماً، ولا تترك أية أنثى عذراء فوق عمر الخامسة ، ولا يوجد كبار السن من الرقيق لدى تجارهم قبولاً[80]. ويعيش رقيق تبو رشادة في أدنى حالات الضعة والموت البطيء والسغب والعري الدائم إلا من قطع جلدية أو من القماش لإخفاء العورات ، وليس أمامهم مهرب إلى سيد آخر، إذ أن الهرب يعني الموت عطشاً وجوعاً والبقاء يعني الموت جوعاً وهو اشر الخيارين، وإذا كان أسيادهم في حالة جوع دائم فما بالك بالرقيق الذين لا حول ولا قوة لهم ، وهناك حكايات عن رقيق من برنو أزهقوا حياتهم بأنفسهم ما أن علموا أن التبو من أهل تبستي بادلوا بهم جمالاً ، ويمكن للمرء ان يقدر بعدها لماذا اختار هؤلاء الأرقاء هذا المصير المزري على الرق لدى التبو [81] .

وهم فضلاً عن ذلك كانوا يتاجرون بالأوعية الخشبية (الكافالاKaffala) والقمصان والماعز والأغنام والعسل وجلود الأسود ، فكانوا يتاجرون بكل شيء مقابل كل شيء ، فمثلاً كانوا يبادلون العبيد بالجمال أو الخيول [82]. وفي القرن التاسع عشر كان التبو في التبستي وكوار جزءاً من الحركة التجارية الضخمة ، فأنهم يشكلون قافلة تجارية مكونة من خمسين أو ستين رجلاً يأتون من كوار أو من برداي فيبيعون ريش النعام وناب الفيل والجلود والتبر الذي يجلبونه من مناطق بعيدة وليس من إنتاج بلادهم، ويشترون ما يقابلها من لوازمهم [83] . ولم يكونوا لصوصاً وسراقاً وقطاع طرق فحسب ، بل كان جزء منهم يؤمن عيشه من مرافقة القوافل وكراء الجمال[84] وفضلاً عن ذلك كانوا يأتون يومياً إلى مرزق كي يبيعوا حميراً وقرباً وماعزاً وسمناً وجبناً وعبيد اً ويحصلون مقابل ذلك على النقود بل يميلون إلى مقايضة التمور بالنقود أو التمور بالأقمشة القطنية والصوفية والسكاكين والمرايا أو الجمال بالعبيد أو الضأن باللوازم الأخرى [85].

لم يعرف التبو نظاماً سياسياً متطوراً ، فلديهم مجلس للأعيان يتكون من المينات(جمع مينا) الذين ينحدرون من أربعة أفخاذ من قبيلة "التوماغيرا "، برئاسة "الدرداي"(الملك) الذي يبحث ويقرر كل المسائل المتعلقة بالمصلحة العامة، وإلى مشورته يرجع الأعيان في حالات القيام بالأعمال الحربية أو الغزوات أو تعيين القادة وتحديد سلطاتهم . وله الكلمة الفصل عند القيام بحملة عسكرية ، وربما يظهر من ينحو بالأمور على عكس رغبته. وكان الإشراف على سير العدالة ليس من اختصاصه[86]، إذ كان النبلاء من كبار السن يضطلعون في العادة في حل المنازعات بين التيدا دون الحاجة لتدخل الدرداي ويرفع الأمر إذا استعصى على أحدهم إلى عدة محكمين أو مجلس المحكمين وفي النهاية قد يستطيع هؤلاء من حل المشكلة التي غالباً ما تكون تافهة ولا تستحق الذكر ، وعندما يفشل كل هؤلاء من حل المشكلة ترفع إلى الحكم أو الداعية السنوسي في واو ، ويكون حكمه قطعياً ونهائياً[87] .

وكان التبو أحراراً في اختيار الدرداي وفقاً لتقاليدهم السائدة في عائلاتهم ، قبل أن تؤثر فيهم القوى الخارجية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر التي كانت تسيطر على الأقاليم القريبة منهم مثل الفرنسيين والعثمانيين والسنوسيين، وكان الدرداي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو تفرتيمي من قبيلة التوماغيرا. وإذا أظهر أحد الدردايات قدرة قيادية فأن الأمر يعود بالدرجة الأولى إلى صفاته الشخصية وليس لأهمية هذا المنصب ، كما أن المردود المالي لمنصبه هزيل ولا يتناسب مع رفعته، وهو يتلقى هبة من الأمة على شكل خيمة وسجادة وطربوش تونسي و"قضمولة"، وهي عمامة بطول ضعف العمامة الاعتيادية

،وبمثابة التاج عند الملوك وترمز إلى رفعة مكانة الشخص الذي يعتمرها، فضلاً عن ثوب سوداني أزرق وسوط من جلد فرس النهر، بيد أنه لا يتلقى أموالاً وليس لديه إدارة وليس للدولة خزينة عامة وليس له على الناس تبعات ضريبية، ولا يستحق الدرداي إلا نسبة صغيرة من المكوس التي كانت تفرض على القوافل التجارية ومن مغانم الحرب(88).

وفي البداية كان عدد الأمراء ممن يحق لهم ارتداء القضمولة كبيراً ، وكل منهم تتبعه قبيلة من قبائل التبو ، أما في الشمال فينحصر هؤلاء في قبيلتي التوماغيرا والقندا ، وكان زعيما القبيلتين لهما حقوقاً متساوية في القضمولة ، وكان زعيم القوندا في منتصف القرن التاسع عشر هو علي بن سيدي وكان يمارس دوره إلى جانب سلف تفرتيمي الدرداي طاهركي شيخ قبيلة توماغيرا ، ففضلاً عن قبيلتي التوماغيرا والقوندا كانت هناك قبائل ليوا زوّا وتقطن شمال باراداي ، وقبيلة غرابسة في شمال بارادي أيضاً ، وقبائل أوركي وكوصوّا أدوبي وكانت تقيم في باراداي ، وقبيلة زوَار مقرها في زوَار، وقبيلة اريندا التي كانت تسكن منطقة أريندا ، وقبيلة بوركوات تسكن بوركو ولها رئيسان رئيس الجهة الغربية ساكومي باكداني والشرقية ويترأسها كالومي ولد نبْكو (89) .

وكان التبو شديدي الإعجاب ببلادهم الشديدة القحولة بأنها أعظم وأجمل بلاد الله "**فمن جوف الأرض ينبعث دخان نيران الأرواح ومينا [الأمير]رجل هرم ، وما وطأت أرضنا أقدام أي رجل أبيض [في عام 1879]** "، وكان الشك يملأ نفوسهم بنوايا الأجانب "**بلادنا ليست ببلاد للعيش" . . . "لأي غرض أتى هذا الكافر؟". . ." لقد أتى لهذا البلد جاسوساً ،إنها لم تطأها قط أقدام تركي أو نصراني حتى يعرف بالتجسس خبايا كنوزها ، وإذا لم نقتله فسيغدر بنا ويبيعنا وسيستولي الأجانب على أراضينا**"(90) . بهذه المفاهيم يقابل التبو الغرباء ، أفراداً أو جماعات .

تضافرت عوامل عديدة في إعطاء الصحراء الكبرى وقبائلها المنسية أهمية استثنائية في نظر الدولة العثمانية ظل سيادة مفاهيم القرن التاسع عشر ، عندما ازدهرت الصناعة وانطلقت الشعوب الصناعية في البحث عن الأسواق لتسويق المنتجات الصناعية والبحث عن الثروات في أفريقيا وأمريكا وآسيا ، ولم يعد هناك شعب بمعزل عن التطورات الاقتصادية السياسية في قارة أفريقيا على وجه التحديد ، فكانت هذه الصحراء ممراً لتجارة ضخمة ذات عوائد هائلة للاقتصاد العثماني دون أن يبذل العثمانيون جهوداً كبيرة فيها . ففي عام 1788ألحق باشا طرابلس هزيمة منكرة بالتبو عندما استتب الحكم العثماني في فزان ، من اجل اجبارهم على الإقلاع عن أعمال السلب والنهب على الطريق التجارية المارة في إقليمهم ، وفي عام 1805توغلت حملة تأديبية بالتبستي ، بعث بها يوسف القرمانلي مما جعل الطريق إلى برنو أكثر أمناً ، وعلى الرغم من ذلك لم يحاول العثمانيون فرض سيادتهم على التبستي (91) .

ولكن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ازداد التنافس الاستعماري بين الدول الغربية لاسيما فرنسا التي كانت تعمل بجد في فرض سيطرتها في الصحراء الكبرى والعمل على توجيه القوافل التجارية إلى موانئ ومدن الجزائر ، وبريطانيا التي كانت تعمل بجهد كبير للقضاء على تجارة الرقيق واحلال تجارة البضائع مثل الأقمشة والمصنوعات الأخرى محلها ، لذا قدم إلى هذه الصحراء أعداد من الرحالة والمكتشفين الأجانب منهم ألمان وبريطانيون وفرنسيون وهولنديون وغيرهم ، وتعرض عدد منهم إلى القتل على يد قبائل الصحراء بعلم من الدولة العثمانية أو بدون علمها(92) ، مما أحرج السلطات العثمانية وتلقي حاكم طرابلس أو الباب العالي اللوم من الدول الأوربية الداعمة لهؤلاء الرحالة (93).

لذا تصرف الموظفون العثمانيون بجدية لتأمين لتأمين السير على الطرق الصحراوية التي كانت تقطع الصحراء طولاً وعرضاً . ومراقبة المشاكل التي تواجه الأمن على هذه الطرق العداء العصي على التذليل بين الطوارق والتبو أو بين التبو والعرب أو بين الطوارق أنفسهم . ففي احدى رسائل والي طرابلس محمد راغب إلى متصرف فزان حسن باشا البلعزي بشأن تسوية النزاع بين التبو والطوارق ورد ما نصه " **إنه ورد علينا تحريرات بمعيتكم المؤرخ في غرت صفر64[كذا] [1847] وفيها تعرفونا خصوص الفتنة الواقعة ما بين الطوارق وتبو تيبسي وبسبب ذلك صار تعطيل إلى التجار والمتسببين من عدم أمنية الطريق بين برنوح والسوادين [،]وانه واقع بين الفرقتين المغارات وأخذ الأحرار [،] وانهم قدموا لطرفكم مراسيل من الطوارق وبأيديهم جوابات من مشايخهم وطلبوا منكم أن يكونوا بواسطتكم ترجيع أحرارهم الذي بيد التبو المذكورين [،] وجبتوهم لذلك وكتبتم في الحال أجوبة من طرفكم لحكام تبو ووجهتوهم مع مرسول من طرفكم وهو أحد مرابطي القطرون ووجهتم معه مراسيل الطوارق وتوجهوا إلى تبو وعند وصولهم رجعوا لهم الأحرار وقبل التاريخ قدموا لطرفكم المرابط المذكور ومراسيل التوارق والأحرار وعدتهم اربعة عشر نفر بين ذكور وإناث وفي وقت وصولهم صار جلبهم بالمجلس وصار تسليمهم إلى المراسيل المذكورين تم بعد التسليم صار الكلام مع مراسيل الطوارق والتجار الحاضرين بمرزق من أجل ترجيع[ارجاع] أحرار التبو الذين بيد الطوارق وتحملوا بذلك حسبما أنكم بينتم ذلك في مضبطة المجلس . . . "**(94).

وذلك قبل أن تتوغل فرنسا بقواتها في حوض بحيرة تشاد ،على الرغم من الصعوبات التي واجهتها في سبيل تطويع الشعوب البدائية القاطنة في هذه الأصقاع . وكانت الدولة العثمانية قبل ذلك تعد فزان ثم الكفرة نهاية لممتلكاتها الصحراوية ، وهي مفصولة بمفازة هائلة تمتد بمسافة 800كيلومتر خالية من المياه، لذا كانت التبستي وكوار مفتاح الصحراء الكبرى وهي خالية تماماً من أي نفوذ سياسي، ومن يستولي عليها بإمكانه فرض سيطرته على الصحراء وبالتالي السيطرة على الطريق الصحراوي الممتد بين طرابلس وأفريقيا جنوب الصحراء، مما دفع بالوالي أحمد عزت باشا بفرض سيادة الدولة العثمانية على التبستي في عام 1858–1859،لأسباب سياسية في المقام الأول ، إذ أوصى بعدم السماح لعربان الشاطئ من الإغارة على التبو بغية استمالتهم للدولة العثمانية " **وإن شاء الله تكونوا وصيتوا عساكر العربان وضباطهم بعدم وقوع هذه الأسباب التي يحصل منها انزعاج أهالي تبو وإجراء العدل لأجل ميلهم إلى الطاعة**"(95).

وعلى الرغم من تصميم الدولة العثمانية على استمالة التبو وحمايتهم من قبائل الصحراء الأشد بأساً، دون أن يتبع ذلك نتائج محسوسة على الأرض، إذ استمرت شكاية التبو من عدوان القبائل الأشد بأساً . لكن بعد عقدين من الزمن تغيرت الاستراتيجية العثمانية في الصحراء ، فصاروا في فزان يعدون الأقاليم الجنوبية بما في ذلك التبستي وتجرهي والقطرون ومدروسة النائية جزءاً من ممتلكاتهم " **وبعدها في سنة اثنتين وسبعين[1870] قدموا ناس بالزاوية والحسون من رباب سرت وأخذوا الأموال**

وقتلوا بعض الرجال وبعدها بسنة قدم غزي كثير الشيخ محمد بن يوسف بن عمر لطيوش[شيخ المغاربة] ملك النسا والرجال ، وأخذوا كافة مكسوبنا الذي وجدوه في البلدان ورفعنا أمرنا إلى مشير طرابلس في ذلك الوقت[علي رضا] وظهر محله لسرت والذي وجدوه من أولادنا ونساء فأردوه وسقدوه[بعثوه] صحبة الحاج حسين التيتيوي أعضاء مجلس مرزق وحصل لنا الفرج بنا سيدنا السلطان نصره الله وعمر بملكه الرضا ومن ذلك الوقت ما أتى لنا أحد من جهة البحر"[96] ، لذلك وجد مصطفى عاصم باشا في عام 1879 بمصطفى فائق منفذا متحمساً لسياسته في الصحراء الكبرى ، وكان يعتقد أن استمالة شيوخ القبائل ورؤسائها إلى حياض الدولة العثمانية سيؤدي بالنتيجة إلى مد السيطرة العثمانية إلى مضارب تلك القبائل فأسس قضاءً للطوارق في قصبة جانيت، وآخر في برداي للتبو رشادة[97] .

بيد أن هذا التدبير المحكم أجهض من الوالي أحمد راسم الذي وصل واليا لطرابلس في تشرين الأول (أكتوبر) 1881 بمباركة فرنسية عندما عزل حاكم فزان النشيط مصطفى فائق ، ولامه على تبذير الأموال في سبيل مشاريع لا تساوي شيئاً ، وبذلك بدا وكأن الدولة العثمانية أقلعت عن المشروع برمته . إلا أن الأطماع الفرنسية البريطانية ومتابعة مخططاتهما باقتسام الصحراء الكبرى بينهما ، وغيرة الموظفين العثمانيين من ذلك حتمت على الدولة العثمانية إعادة النظر في خططها السابقة الرامية إلى فرض سيادتها على التبستي وما ورائها[98] .

ففي أيار(مايو) عام 1888قدم العقيد عمر صبحي كتيباً صغيراً إلى السلطان عبدالحميد الثاني بعنوان " **أهمية طرابلس وبنغازي والصحراء الكبرى والسودان** " وهو دراسة في الأوضاع الجغرافية والبشرية والاقتصادية والحدود والتقسيمات الادارية ، نوه فيه بأهمية طرابلس وبنغازي والصحراء الكبرى وأهميتها في التأثير الحضاري والديني لاسيما في تجارة الصحراء ذات الأهمية الكبيرة مع دواخل أفريقيا ، مع التأكيد على أهمية أقاليم توات وكوار والتبستي وبوركو ، وقدم بعد ذلك إلى الطبع في عام 1890[99].

أثار اجتماع عام 1890 بين فرنسا وبريطانيا الدولة العثمانية التي رأت فيه تهديداً لأراضي تدعي السيادة عليها، فوجهت مذكرة إلى القائمين بالأعمال العثمانيين في باريس ولندن في 30 تشرين الأول 1890 بحقوقها التاريخية في الدواخل الصحراوية الأفريقية (الهنترلاند) ،ولكن الدولة العثمانية لم تكن في وضع بإمكانها فرض وجهة نظرها بالقوة. وعلى الرغم من تلك المذكرة قامت القوات الفرنسية ابتداء من عام 1894 وحتى عام 1906 بفرض سيطرتها على مناطق واسعة من الصحراء ، تنفيذاً من جانبها لمقررات اجتماع 5 آب(أغسطس) 1890، ففي عام 1903 احتلت القوات الفرنسية أغادس وفي عام 1906 احتلت بيلما تلك المنطقة البالغة الأهمية في الصحراء الكبرى ، ولم يبق خارج عن سيطرتها ، سوى منطقة التبستي ، وربما اكتفى العثمانيون بنشاط السنوسيين الذين وصلوا إلى الكفرة في عام 1895 ، ثم إلى قورو في عام 1902 وإلى أبعد من ذلك في السنوات اللاحقة ، وصاروا يناضلون فرنسا نيابة عنهم في بئر علالي وغلاقا [100].

وعلى الرغم من سياسة الدولة العثمانية اللينة تجاههم وتأثير الدعاة السنوسيون إلا أن التبو لم يقلعوا عن سلوكهم الشائن بالسلب والنهب إزاء القوافل التجارية ربما بدفع من الفرنسيين الذين كان همهم تحويل الطريق التجاري إلى مدن الجزائر وتونس أي دفعه بعيدا عن التبستي باتجاه الغرب، ففي عام 1899 نهب التبو قافلتين قادمتين من بلاد السودان ، لذلك دفعت الدولة العثمانية بعربان الشاطئ لتأديبهم وارجاع المنهوبات والأبل ورفع الراية العثمانية على ملاحة كوار، بيد أن التبو أوقعوا بالحملة فقتلوا 147من الرجال ونهبوا 186 جملاً و34 حصاناً ، ولاحقوا المهاجمين إلى ناحية عقبة على بعد يومين من مرزق فقتلوا طارقيين وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الممتلكات وكروا راجعين دون خسارة تذكر[101] .

مما دفع محمود بيك متصرف فزان في أيلول (سبتمبر)1900 إلى الاقتراح على والي طرابلس باحتلال التبستي عسكرياً وتأسيس قضاء للتبو، وارسال حامية عسكرية لدعم الحكم المزمع إنشائه، وبالفعل أرسلت الحكومة العثمانية قوة عسكرية من فزان مؤلفة من 700 عنصر فاصدم بها التبو الذين كانوا يكرهون المستعمرين حتى لو كانوا الدولة العثمانية ، بقيادة ماينا سافامي في معركة آوزو وأبيدت القوة المهاجمة عن بكرة أبيها على الرغم من تباين الطرفين بالعدة والعدد[102].

وفي عام 1901–1902 أزمع العثمانيون احتلال بيلما، ولكن السيف الفرنسي كان أشد مضاءً، ويبدو أن فرنسا كانت متفضلة بترك التبستي فسارع العثمانيون بإقامة قضاء رشادة في برداي في عام 1907، إذ استدعى رجب باشا زعيم التبو رشادة ماينا سافامي المتقلب الولاءات إلى مرزق حاضرة فزان ودفع له جميع مستحقاته المالية المتأخرة منذ زمن بعيد ومقدارها 250 قرشا شهريا أو 35 مجيدي وعامله معاملة طيبة وأناط به علماً عثمانيا برفقة خمسة من العسكر، لتسهيل جمع اعشار التبو رشادة ، وربما ادرك سافامي أن التبعية للدولة العثمانية أهون الشرين [103].

وكان الفرنسيون يعدون قورو وبوركو أرضاً فرنسية ، فسلحوا قوة من المرتزقة في 1910 مكونة من ألف وثمانمائة من المقاتلين المحليين بقصد احتلال موقع دورو تمهيداً لاحتلال القصبتين فوقعت معركة بين الأهالي والمرتزقة أرتد بعدها المرتزقة مخلفين ورائهم كثيراً من القتلى والأسرى والبنادق والعتاد وطلب أهالي المنطقة حماية الدولة العثمانية من التهديد الفرنسي ، لكون منطقة بوركو لها أهمية كبيرة بكونها مفتاح التجارة مع واداي ووسط أفريقيا[104] ، فعينت السلطات العثمانية عثمان بك طبيب الفرقة العسكرية قائمقاماً في تبو رشادة بصحبة ثلة من الجند ثم أسسوا ثكنة عسكرية في برادي لقربها من التبستي . ولما تمركز العثمانيون في برادي أصبحوا قريباً من كوار ، فطلب أهلها أيضاً حمايتهم من الفرنسيين بدفع من مقدم الزاوية السنوسية محمد السني بقوله " **يجب عليكم حماية المسلمين من الإساءة** " [105].

وكانت فرنسا ترسل جنودها من أباشر في واداي إلى كوار في مدد متفاوتة ، بيد أنها عندما علمت سيطرة العثمانيين على كوار سلطت طوارق العير على أعدائهم التقليديين التبو فقتلوا رجالهم طعناً بالحراب وصادروا أبلهم وأسروا نبلاءهم في احدى القوافل في بيلما بعيداً عن اقليمهم من أجل إغلاق طريق كوار طرابلس، فاستجار هؤلاء بالعثمانيين أصحاب المصلحة الحقيقية في هذا المرفق المهم[106] فاحتجوا على هذ الفعل وطلبوا من الفرنسيين تسوية الأمر بإطلاق سراح الأسرى وإعادة المنهوبات، وذلك

في مذكرتين في 13أيلول(سبتمبر)و13تشرين الأول(أكتوبر)1910.وإزاء ذلك ادعت فرنسا أن المنطقة تحت السيطرة الفرنسية من اتفاقية 1899،ورد العثمانيون أن التبستي قضاء عثماني منذ عشرين عاماً ولم يتغير شيء سوى استبدال القائمقام [107].

وعلى الرغم من الانتصارات التي حققها السنوسيون والتبو والمتطوعون الآخرون في براداي والتبستي على الفرنسيين في معركتين في واداي في عام 1910، إلا أنهم يعرفون جيداً أن لا قبل لهم بالقوة العسكرية الفرنسية على المدى الطويل دون دعم الدولة العثمانية . واحتجت فرنسا عندما شاهدت أن السلطات العثمانية تحكم سيطرتها على التبستي وكوار ، بان سبعة جنود في براداي وعشرة آخرين في عين غلاكا يعد من وجهة نظرتها انتهاكاً للتراب الفرنسي ، وطالبت في 12 شباط (فبراير)1911 الإسراع في تخطيط الحدود بين الدولتين وإلا ستكون الدولة العثمانية هي المسؤولة عما يجري في الصحراء [108]، ولكن جاء الاحتلال الايطالي لطرابلس وبنغازي في خريف1911 ، ثم انتهاء الحرب الايطالية العثمانية بموجب معاهدة أوشي – لوزان في عام 1912 حتمت على الدولة العثمانية سحب كل مظاهر تمثيلها من برقو وتبستي التي سقطتا تحت الحكم الفرنسي. ومما يؤسف له أن الانسحاب العثماني منهما وقع تحت هجمات التبو[109] .

وفي قبل الحرب العالمية الأولى استقدمت قوات جديدة بقيادة فانيل قائد القوات الفرنسية في التبستي الذي اقترح بإخلاء واحتي باراداي وزوار من سكانهما وتدميرهما لعدم امكانية القوات الفرنسية الاحتفاظ بالأرض لصعوبة الطبيعة في هذه الجهات ، وتمكن الدعوة السنوسية من نفوس السكان لاسيما التبو ، ثم أن إخلاء باراداي يعد انتصاراً للسنوسيين والعرب الذين كانوا يقارعون الايطاليين في أقاليم الساحل ،كما كان الإخلاء يشكل خطورة على الموقف الفرنسي في الجزائر وتونس ، لذا قرر الكولونيل لارجو في عام 1913 احتلال التبستي وبورقو ودعم الطريقة التيجانية الممالئة للفرنسيين في شمال أفريقيا ضد الدعوة السنوسية ، لتأكيد السيادة الفرنسية فيهما وحماية ظهر القوات الايطالية[110] .

الخاتمة

انتشر التبو على مساحات هائلة من الصحراء الكبرى وأخذوا تسميتهم من طبيعة المنطقة التي ينتشرون فيها . وتباينت ألوان بشراتهم وأطوال قاماتهم وأشكال أنوفهم تبايناً كبيراً ، مما جعل الآراء عن أصولهم تتباين تبعاً لذلك ، ومهما كان ذلك الاختلاف فأنهم نتاج للتزاوج بين مجموعتين بشريتين من شعوب الصحراء ،كما كانوا نتاج الطبيعة الصحراوية القاسية التي أثرت في تكوينهم النفسي والجسماني وطباعهم وغذائهم تأثيراً بالغاً ، فكانوا شديدي التحمل في المطاولة ، قليلي الأمراض قساة الطباع ، وأورثهم العيش إلى جانب جماعات أقوى منهم أو أشد باساً أو تحت طائلتهم خبث وسوداوية الطباع واللصوصية والاسترابة. وهم مسلمون مالكيو المذهب ، أدت الدعوة السنوسية دوراً في تهذيب طباعهم وتدينهم ، بعد أن دخلوا الإسلام مرة أخرى على أيديهم ، فانقادوا للدعاة السنوسيين انقياداً كاملا بدلاً عن النظام السياسي الذي افتقدوه .

ويعد مجتمعهم مجتمعاً طبقياً وفيه حافظت الطبقة الارستقراطية على تميزها عن مجتمع الزراع كما تميزت عن مجتمع الصناع ، ويعد ارستقراطيو التبو أنفسهم تجاراً ولا ينتجون بضائع وسلع يمكن أن تدخل في التجارة أكثر من الحيوانات ومنتجاتها ، وهم تجار رقيق سيئون، ولا تنتج مناطقهم وفرة انتاجية يمكن أن تدخل في التبادل التجاري ، سوى كميات قليلة من المحاصيل لا تكاد تسد رمقهم لذا عاشوا في بيئة من السغب الدائم .

ولم يعرف التبو نظاما سياسياً متطوراً ، وهم يكرهون الغرباء أياً كانوا ، ومن هنا جاءت كراهيتهم للمستعمرين مهما كانت دوافعهم بما في ذلك العثمانيين، ولكنهم في نهاية الأمر كانوا أمام خيارين أما الخضوع للفرنسيين(الكفار) أو الانصياع للعثمانيين المسلمين ، فاختاروا أقل الشرين ، لاسيما أن السنوسيين كانوا يدفعونهم دفعاً للالتصاق بالدولة العثمانية بكونها النظام السياسي أو الدولة القادرة على حمايتهم ، وأخيراً لما انهزم العثمانيون أمام ايطاليا في عام 1912 وانسحبوا من الصحراء الكبرى وتركوهم لمصيرهم أمام فرنسا فدخلوا تحت السيطرة الفرنسية على مضض .

الهوامش

(1) لقد أجرى غوستاف ناختيغال مقارنة بين التبو (التيدا) والدازا المتطابقين مع القرعان(القرهان) أنظر
Gustav Nachtigal, Sahara and Sudan, Kawar, Bornu, Kanem, Borku, Ennedi ,Vol.II, Translated by Fisher &Fisher ,(copy) Great Britain, 1974 ,p.161;
انظر كذلك بول مارتي (المعد) ، دور العرب الليبيين في مقاومة الغزو الفرنسي في بلدان جنوب الصحراء في القارة الأفريقية ، مقتطفات من مجلة دراسات إسلامية ، ترجمة محمد عبد السلام العلاقي ، ص37.

(2) E. W. Boville , Missions to the Niger, Vol. I,(Cambridge,1962), p.100; Jean Chapelle ,Nomades Noirs du Sahara, (Plon,1957) , p.50 .

(3) رشادة تعني الصخور باللغة التركية .

(4) تبعد برداي عن مرزق بمقدار180ساعة سير باتجاه جنوب شرقي ، أي 900 كيلومتر .أنظر تقرير سامي بيك متصرف فزان إلى مركز الولاية في 4يوليو 1911، شرح المتصرف فيه حالة فزان الاقتصادية وعدد سكانها تقسيماتها الإدارية ، الوثيقة رقم3 ،في مجموعة أحمد سعيد الفيتوري، ليبيا وتجارة القوافل ،(طرابلس، 1972)، ص31 .

(5) كذلك يوميات الرحالة فردريك هورنمان ، الرحلة من القاهرة إلى مرزق عاصمة فزان عام 1797 ، تعريب مصطفى محمد جودة ، (طرابلس ، مكتبة الفرجاني ، 1968) ، ص119؛
E. W. Boville , Missions to the Niger , Vol. I , p. 112 . Gustav Nachtigal ,Tripoli and Fezzan Tibesti or Tu, Vol. I, Translated by Fisher &Fisher ,(copy) Great Britain, 1974 ,p. 371-372 .

(6) غوستاف ناختيغال، الصحراء وبلاد السودان، المجلد الثاني ، تبستي أو تو ، ترجمة عن الانكليزية من قبل عبد القادر المحيشي ، (طرابلس ، مركز جهاد الليبيين، 2007)، ص615–616 .

(7) Jean Tilho , The Exploration Tibesti , Erdi ,Borkou ,and Ennedi in1917-1920 ,Geographical Journal (London, September1920 ,Vol. 56, No. 3). P.179;Rosita Forbes, The Secret of Sahara, Kufara , (London,1921), p. vii.

(8)نقلاً عن غوستاف ناختيغال، الصحراء وبلاد السودان، المجلد الثاني ، تبستي أو تو ، ص 58؛ أنظر كذلك Captain G. F. Lyon , Narrative of Travels in Northern Africa in the years 1818 ,19, and20, (London,1820) ,p. 230;

(9) E. W. Boville , Missions to the Niger , Vol. 2,(Cambridge,1962), Jean Chapelle ,Nomades Noirs du Sahara…p.264 ; Jean Tilho , The Exploration النطرون هو كاربونات الصودا. p.201; Tibesti …., P.179.

(10) Gustav Nachtigal , Tripoli and Fezzan Tibesti or Tu …,p. 371-372 .

(11) Ibid., P.236 – 244 .

(12) يوميات الرحالة فردريك هورنمان ، الرحلة من القاهرة إلى مرزق . . . ، ص 117.

(13) غوستاف ناختيغال، الصحراء وبلاد السودان، المجلد الثاني ، تبستي أو تو ، ص583 .

(14) المصدر نفسه ، ص 363؛ Captain G. F. Lyon ,Narrative of Travels in Northern Africa….., p.12.

(15) كان على هذا الاعتقاد أميل جونيتي قائد الحملة التي قضى فيها الفرنسيون على امبراطورية رابح فضل الله في عام 1900، أنظر بول مارتي ، دور العرب الليبيين ، ص16، ص24 .

(16) غيرهارد رولفس ، رحلة عبر افريقيا ، مشاهدات الرحالة الألماني رولفس في ليبيا وبرنو وخليج غينيا ، ترجمة عماد الدين غانم ، (طرابلس ، 1996)، ص 366 ؛ أنظر محمود ناجي ، تاريخ طرابلس الغرب ، ترجمة عبد السلام أدهم ومحمد الأسطى ، (طرابلس ، 1970) ، ص 199 .

(17)غيرهارد رولفس ، رحلة إلى الكفرة ، ترجمة عماد الدين غانم ،(طرابلس،2000) ، ص445.

(18) غوستاف ناختيغال ، الصحراء وبلاد السودان ، المجلد الأول ، طرابلس وفزان ، ص 329 -330؛ ؛ غيرهارد رولفس ، رحلة عبر أفريقيا ، 367 ؛أنظر Bernard Lewis, "Race and Colour in Islam", Encounter, London, August,1970,p. 1-20 .

(19) عبد القادر جامي، من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى ، ترجمة محمد الأسطى، (طرابلس ،1974)، ص103 ،115 .

(20) جيمس ريچاردسون، ترحال في الصحراء ،ترجمة الهادي أبو لقمة،(بنغازي ،1993)،ص 193،190 ؛ 647-48 ؛ أنظر كذلك فردريك هورنمان ، الرحلة من القاهرة إلى مرزق ، ص117 ؛ أنظر كذلك صادق المؤيد العظم ،رحلة في الصحراء الكبرى بأفريقيا ، ترجمة عبد الكريم أبو شويرب ، (طرابلس ،1998)، ص130 .

(21) نقلاً عن غوستاف ناختيغال، الصحراء وبلاد السودان، المجلد الثاني ، تبستي أو تو ، ص640 .

(22) المصدر نفسه ، ص654–55.

(23)غيرهارد رولفس، رحلة عبر أفريقيا ، ص 327؛ محمود ناجي ، تاريخ طرابلس الغرب ، ص199؛ Jean Chapelle ,Nomades Noirs du Sahara…p.341.

(24) أنظر كذلك ، فردريك هورنمان، من القاهرة إلى مرزق ، ص118 ؛ Gustav Nachtigal , Tripoli and Fezzan Tibesti or Tu, vo.I p.193, 414.

(25) غيرهارد رولفس، رحلة عبر أفريقيا ، ص327؛ Jean Chapelle ,Nomades Noirs du Sahara…p.252.

(26) جنگر– منگر (مجري) سلاح غريب يمكن وصفه بأنه نصل حديدي بطول ثلاثة أشبار تتصل به مجموعة من النصال الأخرى الحادة النهايات على شكل زوائد وقرون بطول شبر بأشكال وزوايا باتجاهات مختلفة ، أما نصفه الآخر يشكل مقبض له يلف بأشرطة جلدية أو معدنية ليسهل حمله ،ويتم صنعه في إقليم أنيدي ، ورجال التبو بارعون في استخدام هذا السلاح الغريب Captain G.F. Lyon, . أنظر كذلك صادق المؤيد العظم ، رحلة في الصحراء الكبرى ، ص129. Narrative of Travels . . .., p. 228 ;

(27) غيرهارد رولفس ، رحلة عبر أفريقيا ، ص 347 ؛ محمود ناجي ، تاريخ طرابلس الغرب ، ص199.- Ibid.,, p. 222 -228;

(28) فردريك هورنمان ، من القاهرة إلى مرزق ، ص118 ؛ أنظر كذلك ، Gustav Nachtigal , Tripoli and Fezzan Tibesti or Tu,vol. I, p. 410- 412; Jean Chapelle ,Nomades Noirs du Sahara…p.248-49 .

وكانوا في القرن التاسع يعرفون الأسلحة النارية ، بيد أنهم لا يمتلكونها لعدم قدرتهم على امتلاكها أو لعدم معرفتهم استعمالها أو خوفهم من البنادق بذاتها فقد صور دينهام في عام 1823 خمسة أو ستة من التبو يدورون على أطراف أصابعهم ويتحدثون بهمس حول شجرة ، لألا يثيروا جلبة قد تسبب إزعاجاً لبندقية تركها أعرابي تحتها لبرهة . وفي عام 1900 تقابل مجموعة من التبو متسلحين بالسيوف مع قوة فزانية مكونة من 700 جندي مسلحين بالبنادق أرسلهم إليهم المتصرف ، وبينما أراد الفزانيون من إعادة حشو بنادقهم هاجمهم التبو من على بعد 45 خطوة ومزقوهم شر ممزق قبل أن تمكنوا من إطلاق

بنادقهم عليهم ، ولم يعد منهم إلى فزان سوى جنديين. ويبدو أن عدم إجادتهم للرماية فيما بعد عائد إلى عصابيتهم وسرعة حركته. أنظر E. W. Boville , Missions to the Niger , Vol. 2, p.119.

(29) غيرهارد رولفس ، رحلة عبر أفريقيا ، ص 374.

(30) اللاقبي شراب كحولي شديد التأثير يستخرج من جذع النخلة مما يلي الرأس ، بأن يجرح الجمار وتترك العصارة الشديدة الحلاوة تسيل إلى اناء يعلق أسفل الجرح وتكون سريعة التخمر فينتج عنها مادة كحولية ثقيلة يدمن الناس على شربها رجالاً ونساءً في مختلف جهات الصحراء ، أما المتدينون فيشربون تلك العصارة قبل تحولها إلى كحول .

(31) Gustav Nachtigal , Tripoli and Fezzan Tibesti or Tu, vol.I, p.413.

(32) غوستاف ناختيغال ،الصحراء وبلاد السودان ; Captain G. F. Lyon , Narrative of Travels … , p.225-226 المجلد الثاني ، تبستي أو تو ص506 ؛ غيرهارد رولفس ، رحلة عبر أفريقيا ، ص327 .

(33) نقلاً عن المصدر نفسه ، ص464.

(34) المصدر نفسه ، ص391-92 .

(35) المصدر نفسه ، ص 391 . Captain G. F. Lyon , Narrative of Travels … , p.225;

(36) غيرهارد رولفس ، رحلة عبر أفريقيا ، 327 . Ibid., p. 228.

يفترض الشيخ محمد بن عمر التونسي أن فتيات التبو الأسيرات لم يكن سوداوات بما فيه الكفاية ، فكان ذلك مدعاة لانخفاض أسعارهن في أسواق الرقيق . أنظر غوستاف ناختيغال، الصحراء وبلاد السودان، المجلد الثاني ، تبستي أو تو . . . ، ص640 .

(37) غوستاف ناختيغال ،الصحراء وبلاد السودان، المجلد الأول Captain G. F. Lyon , Narrative of Travels… ;p.227-232, ص333؛ المجلد الثاني ، تبستي أو تو، ص679؛ أنظر كذلك بول مارتي ، دور العرب الليبيين ،ص39.

(38) Captain G. F. Lyon , Narrative of Travels . . . , p. 227 .

أورد الرحالة جيمس ريچاردسون قصة مفادها أن تبو بيلما يخلون بيوتهم إلى الجبال القريبة ، إذا وفدت قوافل نقل الملح ويترك الوافدون الجدد مع نسائهم، وربما يستغرق هذا الأمر شهراً لذا على التبو أن يتزودوا بالمتاع والمؤونة اللازمة ، ولا يحق للتبوي دخول بيته دون أن يخبر زوجته بوصوله خشية منها أن يجدها زوجها تطارح أحد تجار الملح الغرام . أن ما ذكره هذا الرحالة يتنافى تماماً مع أجمع عليه بقية الرحالة بعفة نساء التبو واخلاصهن لأزواجهن في مدد غيابهم الطويلة ، يبدو أن ريچاردسون استقى هذه المعلومة من الأفواه ،لاسيما أنه لم يبلغ ممالح بيلما في رحلته الأولى .أنظر ، جيمس ريتشاردسون ، ترحال في الصحراء ص509. وأورد رولفس قصة مفادها أن احدى النساء طلبت منه أن يعطيها دواء حتى تلد ولداً عالقاً في أحشائها منذ أربع سنين ، غيرهارد رولفس، رحلة عبر أفريقيا ، ص353 .

(39) غوستاف ناختيغال ، الصحراء وبلاد السودان ، المجلد الثاني ، تبستي . . . ص 688 ؛ ريتشاردسون ، المصدر نفسه ،508- 509.

(40) Charles Le Coeur, Dictionniare,(Dakar, 1950),p.58 .

ويبدو أن توقير بقية أفراد الأسرة لرب الأسرة حالة اجتماعية متعارف عليها ، فهم يتحاشون الجلوس بحضرة رب الأسرة ، بل لا يجلس الزوج بحضور الأب وإذا صادف جالساً وجاء حموه عليه أن يقف قائماً ويترك المجلس ، ، أما الأخ هو الذي يبتعد بحضور الزوج أو يجلس في الطرف الآخر من المجلس الذي يجلس فيه صهره . أنظر صادق المؤيد العظم ، رحلة في الصحراء الكبرى ، ص128 .

(41) غوستاف ناختيغال ، الصحراء وبلاد السودان ، المجلد الثاني ،ص629 .

(42) Captain G. F. Lyon ,Narrative of Travels, p.228. ; Gustav Nachtigal , Tripoli and Fezzan Tibesti or Tu, vol. I, p. 234.

(43) يبدو أن الرحالة لا يدركون أن الدم حرام على المسلم.

Captain G. F. Lyon, Ibid., p. 228; Gustav Nachtigal , Ibid., p. 240.

(44)Captain G. F. Lyon Ibid . , p. 227.

(45) غيرهارد رولفس ، رحلة عبر أفريقيا ، ص 353. ولا يتعدى عدد نفوس التبو رشادة قبل القرن التاسع عشر بضعة مئات من الآلاف منتشرون على هذه الأقاليم الواسعة ، بيد أن أعدادهم نمت بدرجة كبيرة في نهايات القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وأصبح بإمكانهم حشد أكثر من 12ألف مقاتل . أنظر محمود ناجي ، تاريخ طرابلس الغرب ، ص 202 .

(46) غيرهارد رولفس، رحلة عبر افريقيا ، ص 300؛

Jean Chapelle ,Nomades Noirs du Sahara…, p.80 -179 ,226; Charles Le Coeur, Dictionniare,p.59.

(47) غوستاف ناختيغال ، الصحراء وبلاد السودان ، المجلد الثاني ، تبستي أو تو . . . ، ص، 363.

(48) Gustav Nachtigal, Sahara and Sudan, Kawar, Bornu, Kanem, Borku, Ennedi , Vol. II, p. 242 ; E. W. Boville , Missions to the Niger , Vol. 2, p.213.

(49)E. W. Boville ,Ibid. , Vol. 2, 213.

(50) انظر غوستاف ناختيغال ، الصحراء وبلاد السودان ، التبستي أو تو ، ص 659 .

(51) Jean Chapelle ,Nomades Noirs du Sahara…, p.268- 269.

(52)غوستاف ناختيغال ، الصحراء وبلاد السودان ، التبستي أو تو ، ص333؛
Captain G. F. Lyon , Narrative of Travels . ., p. 232.
(53) Ibid., p. 226-227, 234 .
(54)غوستاف ناختيغال ، التبستي أو تو ، المجلد الثاني ، ص662 ؛
Henri Carbou ,La Region du Tchad et du Ouadai, (Paris ,E. Leroux,1912),p. 124-126.
(55) المصدر نفسه ،ص 485—486.
(56) جيمس ريتشاردسون ،ترحال في الصحراء ، ترجمة الهادي أبو لقمة ،(بنغازي 1993)، ص190 .
(57) غوستاف ناختيغال ،الصحراء وبلاد السودان ، التبستي أو تو، المجلد الثاني ، ص482–483.
(58) أنظر المصدر نفسه ، ص 680؛
Jean Chapelle ,Nomades Noirs du Sahara…, p.323-328;Charles Le Coeur,Dictionniare ,p.205.
(59) صادق مؤيد العظم ، رحلة في الصحراء الكبرى بأفريقيا ، ترجمة عبد الكريم أبو شويرب ، (طرابلس ، 1998)،ص128 .
(60) غيرهارد رولفس ، رحلة عبر أفريقيا، ص 373؛ ;
CaptainG.F.Lyon, Narrative of Travels . . . , p.228 .
وإذا لم يكرر أحد الطرفين كلمات التحية أو المجاملة بما فيه الكفاية من المرات ، فأن الأمور تصل إلى مالا تحمد عقباها ، وربما يقع قتال بين عائلتي الطرفين أو قبيلتيهما . أنظر Charles Le Coeur, Dictionniare,p.136 .
(61) جيمس ريتشاردسون ، ترحال بالصحراء ، ص495 ؛ محمود ناجي ،تاريخ طرابلس الغرب ، ص 199 .
(62)غوستاف ناختيغال ، المجلد الثاني ، التبستي . . . ، ص 544 ؛ بول مارتي ، دور العرب الليبيين ، ص38 .
(63) غوستاف ناختيغال ، المصدر نفسه ، ص670.
(64) غيرهارد رولفس ، رحلة عبر أفريقيا ، 370–371 ؛
Jean Chapelle ,Nomades Noirs du Sahara…,p.207-210.
(65) الوثيقة15مضبطة من أهالي تبوكاوار إلى الوالي علي رضا باشا يشكون الاعتداء عليهم وسلب أموالهم في عام 1287 (1870)، الوثائق العثمانية ، المجموعة الأولى ، ترجمة محمد الأسطى وإعداد خليفة محمد الدويبي ،(طرابلس ،1990)، ص64 .
(66) بول مارتي ، دور العرب الليبيين ، ص39 . Captain G. F. Lyon ,Narrative of Travels p.126;
(67) غوستاف نختيغال ، الصحراء وبلاد السودان ، التبستي أو تو ، ص 672–677؛ محمود ناجي ، تاريخ طرابلس الغرب ، ص198.
(68) Gustav Nachtigal , Tripoli and Fezzan, Tibesti or Tu, p. 403-404.
(69) يبدو أن وجودهم في الكفرة فرض على سلوكهم شيئاً من التحضر. صادق المؤيد العظم ، رحلة في الصحراء الكبرى، ص128-130.
(70) غيرهارد رولفس ، رحلة عبر أفريقيا ، ص 370؛ محمود ناجي ، تاريخ طرابلس الغرب ، ص 198؛ JeaCh apelle ,Nomades Noirs du Sahara, p.59 ,83-85,376-377.
(71) محمود ناجي المرجع نفسه ، ص198 ;Gustav Nachtigal , Tripoli and Fezzan Tibesti or Tu, p. 403-404
(72) Ibid., p. 204.
(73) نقلاً عن محمود ناجي ، تاريخ طرابلس الغرب، 198؛
Jean Chapelle ,Nomades Noirs du Sahara…, p.49 , 97- 98 ; Rosita Forbes ,The Secret of Sahara , Kufara , p. 205 .
(74) رسالة شكر من الوالي إلى مشايخ التبو عن طريق متصرف فزان في 28 من نوفمبر 1882، الوثيقة 30 من الوثائق العثمانية ، المجموعة الأولى ،ص109 .
(75) غيرهارد رولفس ، رحلة عبر أفريقيا ، ص305، 309 ؛ أنظر عبد القادر جامي ، من طرابلس . . . ، ص92 .
(76)الوثيقة15 مضبطة من أهالي تبو كاوار إلى الوالي علي رضا باشا يشكون الاعتداء عليهم وسلب أموالهم في عام 1287 (1870)، الوثائق العثمانية ، المجموعة الأولى . ص64
(77)غوستاف ناختيغال ، التبستي أو تو ، ص693 .
(78) عبد القادر جامي ، من طرابلس الغرب . . . ، ص92 . ;Captain G. F. Lyon , Narrative of Travels . . . ,p.231
(79) غوستاف ناختيغال ، التبستي أو تو ،ص646–693 .
(80) جيمس ريچاردسون، ترحال بالصحراء ، ص190، 493،195 . Captain G. F. Lyon ,Narrative of Travels, p. 120;
(81) غيرهارد رولفس ، رحلة عبر أفريقيا ، ص375 ؛ أنظر كذلك رسالة حسن عبدة قائمقام فزان إلى الوالي العثماني في طرابلس ، في 92 شوال 1263، الوثيقة رقم 19 في مجموعة أحميد سعيد الفيتوري ، ليبيا وتجارة القوافل ،ص51– 52 .

(82) يبدو أن جلود الأسود منع تصديرها فيما بعد من قبل سلطان البورنو ، لتنام عليها جواريه عند مضاجعته إياهن للاعتقاد السائد أن هذه الجلود تمنع الحمل . أنظر
Captain G. F. Lyon ,Narrative of Travels, p.159 ,181-182 .
(83) محمود ناجي ، تاريخ طرابلس الغرب ، ص202.
(84) عبد الرحمن چايچي ، الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى ، ترجمة علي اعزازي ، (طرابلس، 1982) ، ص247 .
(85) غيرهارد رولفس ، رحلة إلى الكفرة ، ص 488 ؛ محمود ناجي ، تاريخ طرابلس الغرب ، ص 202 .
(86) غوستاف نأختيغال ، الصحراء وبلاد السودان ص665-666؛
Jean Chapelle ,Nomades Noirs du Sahara…, p. 87.
(87) المصدر نفسه ، ص 680-81 .
(88) غيرهارد رولفس ، رحلة عبر أفريقيا ،ص374؛ Gustav Nachtigal , Tripoli and Fezzan Tibesti or Tu ,p.
Jean Chapelle ,Nomades Noirs du Sahara…, p.93 ,373. 399;
(89) وثيقة 52 من قائمقام فزان إلى الوالي رقم 121 في 4يونيو 1911في الوثائق العثمانية المجموعة الأولى، ص244 .
(90) نقلاً عن غوستاف ناختيغال ، الصحراء وبلاد السودان ، التبستي أو تو ، ص365 ــ 367 ،523، 530 . .
(91) Jean Chapell, Nomades Noir du Sahara , p. 50 -51 .
(92) بعض هؤلاء قتل نتيجة تصفية حسابات بين الدول المتصارعة .
(93) B.G. Martin, Five Letters of the Tripoli Archives, Journal of Historical Society of Nigeria,Vol.2 No3, December,1962, p. 350 -372 .
(94) رسالة محمد باشا راغب والي طرابلس إلى حسن باشا البلعزي في 22صفر 1264 (في30 يناير1847)، الوثائق العثمانية ، المجموعة الأولى ، الوثيقة رقم 5 ، ص36 .
(95) رسالة من الوالي أحمد عزة إلى متصرف فزان في 29صفر1268(29 دسمبر1851)، الوثائق العثمانية ، المجموعة الأولى ، الوثيقة رقم 6 ، ص39 ؛ أنظر كذلك أتوري روسي ، ليبيا من الفتح العربي إلى عام 1911، ترجمة خليفة محمد التليسي ، الطبعة الثانية ،(القاهرة دار العربية للكتاب ، 1991)، ص477ــ478،
(96) الوثيقة15مضبطة من أهالي تبو كاوار إلى الوالي علي رضا باشا يشكون الاعتداء عليهم وسلب أموالهم في عام 1287 (1870)، الوثائق العثمانية ، المجموعة الأولى ، ص64 .
(97) أتوري روسي ، ليبيا من الفتح العربي إلى عام 1911، ص477ــ478،
(98) محمود ناجي ، تاريخ طرابلس الغرب ، ص 188؛ عبد الرحمن چايچي ، الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، ص 102
(99) أتوري روسي ، ليبيا من الفتح العربي إلى عام 1911، ص480.
(100) المرجع نفسه ، ص 483–484 .
الانظر كذلك عبد القادر جامي ، من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى ، ترجمة محمد الأسطى ، (طرابلس ، 1974) ، ص55
(102) Charles ,Marguerite Le Coeure, Grammaire et textes teda-daza ,(Paris, Institut français d'Afrique noire,1956), p.140.
تبدو المبالغة واضحة في بيانات لاكور لاسيما أن الواقعة لم ترد في المراجع والمصادر الأخرى .
(103) عبد الرحمن چايچي ، الصراع التركي الفرنسي ،ص 248. Jean Chapell, Nomades Noir du Sahara …. , p. 93 ;
(104) رسالة من رئاسة الوزراء إلى وزارة الخارجية في 18 فبراير 1910، الوثيقة رقم 46 من الوثائق العثمانية المجموعة الأولى ، ص220 .
(105) نقلاً عن عبد الرحمن چايچي ، التنافس التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، ترجمة علي اعزازي،(طرابلس، 1982)، ص248.
(106) رسالة وكيل متصرف فزان إلى ولاية طرابلس في 30مارس1326رومية(13نيسان – أبريل 1910) برقم 79، الوثيقة رقم 150في مجموعة أحمد صدقي الدجاني وعبد السلام أدهم ، وثائق ليبيا في العصر الحديث ، (بيروت ،1974) ، ص260 -261 .
(107) عبد الرحمن چايچي ، التنافس التركي الفرنسي . . . ، ص249.
(108)المرجع نفسه ،ص250.
(109) Jean Chapell, Nomades Noir du Sahara …. , p.64.
(110) بول مارتي ، دور العرب الليبيين ، ص25، ص27 .

ثبت المصادر والمراجع

أـ الوثائق المنشورة :

1ــ الوثائق العثمانية ، المجموعة الأولى ، ترجمة محمد الأسطى ، وإعداد خليفة محمد الدويبي ، (طرابلس ،1990) .

2ــ مجموعة أحمد سعيد الفيتوري ، ليبيا وتجارة القوافل ،(طرابلس، 1972).

3ــ مجموعة أحمد صدقي الدجاني وعبد السلام أدهم ، وثائق ليبيا في العصر الحديث ، (بيروت، 1974).

ب الكتب العربية والمعربة والأجنبية:

4ــ چايچي ،عبد الرحمن، الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، ترجمة علي اعزازي، (طرابلس، 1982).

5ــ جامي ، عبد القادر ، من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى ، ترجمة محمد الأسطى ، (طرابلس ، 1974).

6ــ روسي ،أتوري ، ليبيا من الفتح العربي إلى عام 1911، ترجمة خليفة محمد التليسي ، الطبعة الثانية ،(القاهرة دار العربية للكتاب ، 1991).

7ـــ رولفس ، غيرهارد، رحلة إلى الكفرة ، ترجمة عماد الدين غانم ،(طرابلس،2000).

8ــ ــــــــــــ ، رحلة عبر افريقيا ، مشاهدات الرحالة الألماني رولفس في ليبيا وبرنو وخليج غينيا ، ترجمة عماد الدين غانم ، (طرابلس ، 1996).

9ــ ريچاردسون، جيمس، ترحال في الصحراء ،ترجمة الهادي أبو لقمة،(بنغازي ،1993).

10 ــ العظم ، صادق مؤيد، رحلة في الصحراء الكبرى بأفريقيا، ترجمة عبد الكريم أبو شويرب ، (طرابلس ، 1998).

11ــ مارتي ،بول(المعد) ، دور العرب الليبيين في مقاومة الغزو الفرنسي في بلدان جنوب الصحراء في القارة الأفريقية ، مقتطفات من مجلة دراسات إسلامية ، ترجمة محمد عبد السلام العلاقي.

12ــ ناجي، محمود، تاريخ طرابلس الغرب ، ترجمة عبد السلام أدهم ومحمد الأسطى،(طرابلس ، 1970).

13ــ ناختيغال، غوستاف ، الصحراء وبلاد السودان ، تبستي أو تو ، ترجمة عن الانكليزية من قبل عبد القادر المحيشي ،المجلد الأول والمجلد الثاني ، (طرابلس ، مركز جهاد الليبيين، 2007).

14ـ هورنمان ،فردريك، الرحلة من القاهرة إلى مرزق عاصمة فزان عام 1797، تعريب مصطفى محمد جودة ، (طرابلس ، مكتبة الفرجاني ، 1968).

15- Boville, E. W. , Missions to the Niger,Vol. I,Vol.2(Cambridge,1962).

16- Carbou ,Henri, La Region du Tchad et du Ouadai, (Paris ,E. Leroux,1912).

17- Le Coeur, Charles ,Dictionniare,(Dakar, 1950)

18- Le Coeure, Charles ,Marguerite, Grammaire et textes teda-daza noire,(Paris, Institut français d'Afrique ,1956).

19- Forbis, Roseta, Secret Sahara ,Kufara,(London,1921).

19- Lewis, Bernard ,"Race and Colour in Islam", Encounter, (London, August,1970).

20- Lyon , Captain G. F. , Narrative of Travels in Northern Africa in the years 1818 ,19, and20, (London,1820).

21-Martin, B.G. ,Five Letters of the Tripoli Archives, Journal of Historical Society of Nigeria,Vol.2 No3,December,1962, p. 350 -372 .

22- Nachtigal , Gustav, Tripoli and Fezzan Tibesti or Tu, Vol. I, Translated by Fisher &Fisher , (copy) (Great Britain, 1974).

23- Nachtigal, Gustav, Sahara and Sudan, Kawar, Bornu, Kanem, Borku, Ennedi ,Vol.II, Translated by Fisher &Fisher ,(copy) (Great Britain,1974).